دور الأدباء والشّعراء والمثقّفين السّوريّين في مواجهة الاستعمار الفرنسيّ

دراسة تاريخيّة

عبد الله السّليمان[1]

مقدّمة

لم يكن الأديب، والشّاعر، والمفكّر، والإنسان المثقّف في يوم من الأيّام منفصلاً عن واقعه المعاش، بل على العكس؛ هو جزء لا يتجزّأ منه، يتفاعل مع أدقّ تفاصيله، فلم تكن المواجهة بالكلمة أقلّ تأثيراً منها بالرّصاصة في تاريخ تحرّر الشّعوب، وهذا القول ينساق على مثقّفي سوريّة، وأدبائها في عصر الانتداب الفرنسيّ، إذ مجدّوا نضال أبناء الأمّة، وشاركوا في المظاهرات الشّعبيّة، وكتبوا في الصّحف الوطنيّة، وعروا ادّعاءات المستعمرين، وفنّدوا أباطيلهم، وتصدّوا لدعواتهم الخبيثة، وتحمّلوا الهمّ الوطنيّ، وأكبروا تضحيات هذا الشّعب، وفضحوا ممارسات مستعمر غاشم حاول قمع أقلام الحقيقة، ومحو شخصيّة الأمّة وفرنستها. من خلال مسح هوّيّة البلاد الثّقافيّة، والفكريّة، والحضاريّة، وطبعها بالطّابع الإفرنجيّ. لا بل إنّ بعض أدبائنا، ومفكّرينا حملوا السّلاح عندما كان يتطلّب الأمر ذلك. فعانوا من التّشريد، والسّجن، والتّعذيب، والاضطهاد، وكلّ ذلك انعكس على وجدانهم، وأثّر في كتاباتهم، وهكذا غدت الكلمة الهادفة الصّادقة خير سند للرّصاصة الفاتكة، لا بل إنّ هذه الكلمة الصّادقة أمست شاهدًا على العصر، ووثيقة تاريخيّة لا يخالطها أدنى شكّ. وهكذا أدّى الأدباء، والمثقّفون السّوريّون دورًا

---

١. مدرس التاريخ في جامعة دمشق.

محوريًّا، ليس في مواجهة الاستعمار فقط، بل في تكوين الشّخصيّة الوطنيّة، وتوثيق تاريخ نضالها التّحرّريّ، وغرس روح المواطنة، والانتماء، والالتزام بقضايا الأمّة؛ من خلال كتاباتهم، وقصائدهم، وصحفهم، ومسرحهم، إيمانًا منهم بقدرة المواطن السّوريّ على صنع نفسه، ومجتمعه، وهويّته، ودولته، وحاضره، ومستقبله، وانطلاقًا من هذه العقيدة، كان الأدباء، والمثقّفون السّوريّون الطّليعة الواعية المتحرّرة الّتي قادت كفاح الشّعب في سوريّة. ونسعى من خلال هذا البحث إلى توثيق نضال الطّبقة المثقّفة من الشّعب في سوريّة إبّان عهد الانتداب الفرنسيّ على سوريّة، من صحفيّين، وكتّاب، وشعراء، وأدباء، ومفكّرين، ومثقّفين، وكتابة تاريخ نضالهم بالقلم، والكلمة، والبندقيّة، والرّصاصة، من خلال قصائدهم، وكتاباتهم، ومنشوراتهم الّتي دوّنها في أحلك أيّام سوريّة تحت الاحتلال، من دون التّطرّق إلى ما كتبته الفئة المتغرّبة من أدباء سوريّة، تلك الفئة الّتي كانت تثني على فرنسا، وتمجّدها، على حساب الهمّ الوطنيّ العام.

أوّلًا: دور الأدباء والمثقّفين في بناء شخصيّة الأمّة

لقد كانت مهمّة الأدباء بوصفهم أفرادًا مثقّفين؛ مهمّة وطنيّة مضاعفة؛ فالأدباء ليسوا فقط شهودًا على عصرهم فحسب، إنّما هم مشرّعو المستقبل المشرق لأمّتهم، والحرّاس الأكثر صدقًا، وأمانة على تراثها، وماضيها. هذا هو الدّور التّاريخيّ لكلّ الأدباء على مرّ العصور التّاريخيّة؛ فالأديب من المفترض أنّه يمتلك رؤيا يتبصّر من خلالها بمصير أمّته؛ من خلال نظرة وسط ما بين المدينة الفاضلة المستقبليّة، والتّبصّر الحاذق في الأوضاع الرّاهنة.

سعى الأدباء، والمثقّفين السوريّين، إلى إعادة بناء شخصيّة الشّعب في العصر الحديث؛ بما يتناسب مع الأفكار السّياسيّة الجديدة؛ الّتي دعت إلى حرّيّة الإنسان، وحرّيّة الكلمة، والفكر، في مرحلة حالكة، وحسّاسة من تاريخ بلداننا، الّتي كانت جميعها تحت نير الاحتلال الغربيّ، وقد تجلّت تلك الجهود من خلال ما قدّمه الصّحفيّون، والمثقّفون، والشّعراء، والكتّاب، والأدباء، والنّخب الواعية، إضافة إلى جهود المؤسّسات

العلميّة، والأدبيّة كمجامع اللّغة العربيّة، وكوادرها، والجامعات، وأساتذتها، ووزارة المعارف، وموظّفيها. ففي سوريّة منذ أن أعلن المؤتمر السّوريّ العامّ الّذي انعقد في دمشق ١٩١٨م؛ سوريّة دولة مستقلّة بحدودها الطّبيعيّة؛ فيما يعرف عند الجغرافيّين العرب ببلاد الشّام، ونودي بالأمير فيصل بن الحسين ملكًا عليها، شهدت البلاد نشاطًا فكريًّا، وأدبيًّا ملحوظًا في عهده[١].

فقد سعى ساطع الحصري الّذي كان وزيرًا للمعارف في حكومة الملك فيصل إلى تعريب لغة المؤسّسات الحكوميّة، وكان علماء بلاد الشّام مع أدبائها، وشعرائها من الضّليعين باللّغة العربيّة، والمتمكّنين من المعرفة، والآخذين بأسباب الثّقافة النّافعة الوافدة إليهم من شتّى الأماكن أمثال الشّيخ جمال الدّين القاسمي، وعبد القادر بدران، وطاهر الجزائري، وبدر الدين الحسيني، وموحد شكري الأسطواني، وعطا الله الكسم، وإنّ هذه الكوكبة من العلماء هي الّتي كوّنت جيل العلماء، والأدباء، والشّعراء، والمحقّقين من بعدهم، الّذين وضعوا أسس النّهضة العلميّة في بلاد الشّام، ومنهم من تفرّد لعلم من العلوم، بالإضافة إللا إحاطته بالعلوم الأخرى من أمثال الأستاذ عبد القادر المبارك في اللّغة العربيّة، والأستاذ الرّئيس محمّد كرد علي في التّاريخ، وعلم الاجتماع، والشّاعر محمّد البزم أستاذ النّحو الأوّل في دمشق، والأستاذ سليم الجندي في الأدب[٢].

وهكذا عادت اللّغة العربيّة لغة البلاد الرّسميّة، واستَحدثت الدّولة دروسًا للموظّفين لتعليمهم الإنشاء العربيّ، واستَحدثت المصطلحات العربيّة اللاّزمة. وفي هذه الفترة نفسها أُسِّسَ **المجمع العلميّ العربيّ** في دمشق في ٣٠ تموز ١٩١٩م، في مبنى المدرسة العادليّة في باب البريد في دمشق، وكان أفراد الهيئة المؤسّسة هم محمّد كرد علي، وعبد القادر المبارك، وفارس الخوري، وعبد القادر المغربي، وأنيس سلوم، وسعيد الكرمي، واسكندر عيسى المعروف، ومرشد خاطر، وأمين سويد، ورشيد بقدونس، وسليم عنحوري، وعز

١. القنطار، سيف الدين، الأدب العربي السوري بعد الاستقلال، ص١٧.

٢. الصغير، إبراهيم، محمّد البزم شاعر العروبة والشام، ص١٧-١٨، ٢٨.

الدين علم الدين، وقد سمّي محمّد كرد علي رئيسًا للمجمع في أوّل نيسان ١٩٢٢م، وكان من قبل رئيسًا فخريًّا له[١]. وقد اهتمّ المجمّع العلميّ العربيّ بنشر المخطوطات العربيّة، وبعث الذّخائر الثّمينة من الأدب القديم[٢].

أمّا **الجامعة السّوريّة**، فإنّ مؤسّسيها حرصوا على استخدام اللّغة العربيّة لغة رسميّة فيها. وكان أوّل ما تأسّس منها مدرسة الطّبّ في دمشق سنة ١٩١٩م في عهد فيصل، (قامت على أساس مدرسة الطّبّ في زمن العثمانيّين ١٩٠١-١٩٠٣م)، وهي النّواة الأولى للجامعة السّوريّة، وسعى عدد من المثقّفين إلى تأسيس معهد الحقوق العربيّ، والّذي فتح أبوابه في ٢٥ أيلول ١٩١٩م، برئاسة الأستاذ عبد اللّطيف صلاح[٣]، ومِن جمع مدرسة الطّبّ، ومعهد الحقوق، ودار الآثار؛ نشأت الجامعة السّوريّة في سنة ١٩٢٣م، وانتخب الدّكتور رضا سعيد رئيسًا لها. وقد أخذت الإدارة الجامعيّة متابعة مراحل تنظيم قبول الطّلّاب، ومواعيد التّسجيل، وإعداد المناهج، وإرساء قواعد التّعليم العالي، وإعلام إدارة الانتداب الفرنسيّة بأنظمة الجامعة[٤]، وقد حرصت الجامعة السّوريّة على تأليف الكتب، وترجمة روائع المؤلّفات العالميّة (العلميّة والأدبيّة)، ونشر المخطوطات[٥]. وتجدر الإشارة إلى دور طلاب الجامعة السّوريّة (جامعة دمشق فيما بعد) في قيادة المظاهرات، وكان أهمّها تلك المظاهرة الّتي أحاطت بفندق فكتوريا سنة ١٩٢٥م مطالبة وزير الخارجيّة البريطانيّ «جيمس بلفور» بالرّحيل عن دمشق فورًا[٦].

استمرّت الجامعة السّوريّة بمدرسة الطّبّ، ومعهد الحقوق بعد أن انفصلت عنهم دار الآثار في سنة ١٩٢٣م، فدعا الشّيخ بهجة البيطار عضو مجمع اللّغة العربيّة سنة ١٩٢٥م إلى إنشاء كلّيّة للآداب، وأخرى للشّريعة، إلّا أنّ طلبه لم يجب، ولما كُلّف محمّد

١. حداد، جورج؛ الخباز، حنا، فارس الخوري حياته وعصره، ص٧١.
٢. الأدب العربي السوري بعد الاستقلال، م.س، ص١٧.
٣. فارس الخوري حياته وعصره، م.س، ص٧١.
٤. فرطاس، حسيبة، العدوان الفرنسي على سوريّة وآثاره (٢٩ ماي ١٩٤٥م)، ص٣٤.
٥. الأدب العربي السوري بعد الاستقلال، م.س، ص١٧.
٦. الريس، منير، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٨٢.

كرد علي **بوزارة المعارف**[١] ١٩٢٨م للمرّة الثّانية، وأمست الجامعة تابعة لها، عَمَدَ إلى فتح «المدرسة العليا للآداب»، والّتي كانت تضمّ أقسام اللّغة العربيّة، واللّغة الفرنسيّة، والفلسفة. ومدّة الدّراسة فيها ثلاث سنوات، كما وَقَعَ اختياره على شفيق جبري ليكون مديرًا لها بالوكالة، وكان يحاضر فيها ساعة في الأسبوع، كما كان يحاضر الصّفّ الأوّل من النّخب السّوريّة المثقّفة من أمثال الأستاذ سليم الجندي، وعبد القادر المبارك، وكان طلاّبها يدفعون أقساطًا مرتفعة. ورغم ذلك لم يلبث الفرنسيّون أن أغلقوا المدرسة سنة ١٩٣٣م خوفًا من اتّساع دائرة تأثيرها في صناعة النّخب المثقّفة في البلاد، لا سيّما بعد أن لمسوا الإقبال الشّديد عليها من الطّلاّب السّوريّين سواء من الذّكور أم الإناث[٢].

كما عيّن الأستاذ محمّد كرد علي الأستاذ شفيق جبري رئيسًا لديوان وزارة المعارف في سنة ١٩٢٨م؛ كونه يتقن اللّغتين: العربيّة والفرنسيّة، وقُدّر لهذا الرّجل أن يحمل مسؤوليّة واجب الوزارة في بناء شخصيّة المواطن على عاتقه، فأثناء وجوده فيها كان ينشر القصائد الوطنيّة مرّة يدعو فيها إلى وحدة سوريّة ولبنان، ومرّة يعرب فيها عن الشّعور الوطنيّ في البلاد، وتكريسًا للّغة العربيّة تولّى واجب تدريب المعلّمين، والمعلّمات على الإنشاء، فكان يدرّبهم على أصول حديثة تعلّمها في مدرسة الآباء العازاريين. وفي سنة ١٩٣٤م ألغى الفرنسيّون وظيفة رئيس الدّيوان فتقاعد عن العمل، وانصرف إلى المطالعة، ونشر مقالات تغلب عليها الرّوح الوطنيّة، وقصائد كان أكثرها في الثّورة، وفي موضوعات وطنيّة أخرى، وكان ينشر مقالاته في «**القبس**»، و«**الأيام**»، وفي بعض المجلاّت وبخاصّة «**مجلّة المجمّع العلميّ العربيّ**»، و«**الثّقافة**»، ومجلّة «**الحديث**» في حلب. وبعد جلاء

١. عيّن محمّد كرد علي وزيرًا للمعارف سنة ١٩٢٠م وزار مع مدير العدليّة بديع المؤيّد باريس زيارة عمل، وهناك كتب أحد الصّحف الفرنسيّة «فيغارو» تصريحًا لهما جاء فيه: «أصبحت سوريّة بفضل الانتداب الفرنسيّ جنّة الله في أرضه»، وبعد انتهاء الزّيارة عرج كرد علي على مصر، وهناك أجبره الوطنيّون السّوريّون على التّراجع عن تصريحه، وهدّدوه بالمقاطعة، فتراجع عنه في إحدى الصّحف العربيّة الصّادرة في القاهرة، وحين عاد إلى دمشق واجهه كاترو (مندوب غورو في دمشق) بتناقض تصريحاته، فما كان منه إلاّ أن قدّم استقالته من الوزارة، مفضلاً صلته بإخوانه الوطنيّين على المنصب الحكوميّ، مسجّلاً موقفًا وطنيًّا لرجل سوري مثقّف، انظر: الحكيم، يوسف، سوريّة والانتداب الفرنسي، ص٦٠.

٢. تكريتي، عدنان، جامعة دمشق وتعريب العلوم، ص٣٢٠.

المستعمر الفرنسيّ عاد إلى الجامعة السّوريّة -كلّيّة الآداب- حيث عيّن عميدًا لها سنة ١٩٤٨م، واستمرّ أحد عشر سنة[١]. ويمكننا أن نلخّص دور الجامعة السّوريّة في بناء شخصيّة الإنسان العربيّ، في جملةٍ كانت من كلمة ألقاها الدّكتور أسعد الحكيم في حفل تأبين الدّكتور رضا سعيد أوّل رئيس لجامعة دمشق سنة ١٩٤٥م: «إنَّ للجامعة فضلاً على الأمّة بصهر عقول أبنائها في بوتقة واحدة، وتوحيد ثقافتهم، وعلى اللّغة العربيّة بإحياء مواتها، وجعلها لغّة عالميّة»[٢].

ثانيًا: دور المثقّفين والأدباء السّوريّين في التّوعية والنّضال السّياسيّ

لقد سجّل الأدباء الأحداث بأحاسيسهم نثرًا، وشعرًا بصدق، وأمانة، وخاضوا معركة التّحرير، والكفاح ضدّ المستعمرين، لا سيّما أنّ كثيرًا من الأدباء، والشّعراء السّوريّين كانوا زعماء سياسيّين، أو صحفيّين، أو رجال إصلاح، أو قادة في النّضال، والحركة الوطنيّة؛ ومن هذه النّخب الثّقافيّة: الدّكتور خالد الخطيب، ونجيب الريس، وخير الدين الزركلي، وخليل مردم بيك، وعمر أبو ريشة، وشفيق جبري، وفارس الخوري، ومحمّد البزم، وبدر الدين الحامد، وعمر يحيى، ومحمّد الفراتي وآخرون. وقد جهد هؤلاء الأدباء، والمثقّفون، وجالدوا، ونفحوا روح العزّة، والثّورة، والإباء، مندفعين إلى أبعد حدود الاندفاع في إثارة النّفوس، وشحذ العزائم، وقد تعرّض أغلبهم للاعتقال، والنّفي، والتّعذيب، وهكذا تبلور أدب تحرّري ملتزم بمقاومة الاستعمار، والمطالبة بالاستقلال؛ أثار في النّفوس الحميّة، وأوقظ الشّعب بعنفٍ حينًا، وبرفقٍ حينًا آخر، ما جعل للأدب رسالة سامية تقف وأحداث الأمّة على مستوى واحد[٣].

إنّ جلّ الأسماء الّتي تقدّمت هي لأدباء مارسوا مهنة التّعليم، وخدموا اللّغة العربيّة، بإظهار محاسنها، وجمالها، وجعلها وسيلة للتّغنّي بماضي الأمّة المجيد، والحفاظ على

١. ترامونتيني، ليزي؛ دونوهيو، جون، أعلام الأدب العربي المعاصر، سير وسير ذاتية، ص٣٠٠-٣٠١.
٢. جامعة دمشق وتعريب العلوم، م.س، ص٣٢١.
٣. الركابي، جودة؛ عبد الكريم، إسماعيل؛ الخطيب، حسام، الوافي في الأدب العربي الحديث، ص١٣١.

شخصيّتها، وأذكوا المشاعر الوطنيّة[١]، وكان لهم دور كبير في توعية النّشَّأ، وتوجيه طاقتهم الوطنيّة، لا سيّما عبد الحميد الحراكي، وجودة الهاشمي، ومحمّد البزم، وسليم الجندي، وعبد القادر المبارك، فكان طلّاب «**مكتب عنبر**»[٢] من دعاة الثّورة في البلاد، فما كان يصلهم من قصائد خير الدّين الزركلي، وأحمد شوقي كانوا يحفظونه، ويردّدونه، وكان لهم شرف الدّعوة إلى أوّل إضراب عرفته البلاد السّوريّة ضدّ المحتلّ الفرنسيّ بتاريخ (٨ آذار ١٩٢١م)، فلمّا نظّم الفرنسيّون زيارة للمفوّض السّاميّ الفرنسيّ دوجوفنيل لمكتب عنبر، سعى طلّاب المكتب إلى إلغائها، لكن المدير لم يكن يملك قرارًا؛ فالبلاد تحت سلطة الجيش الفرنسيّ، وكانت دوائر المعارف قد احتالت على طالب ليلقي خطابًا يمجّد فرنسا، ومفوّضها، فحال زملاؤه دون قيامه بذلك، ولم يكد يصل المفوّض السّامي حتّى تحوّلت مراسم استقباله إلى فوضى وسخريّة، وانتهت بخطاب ألقاه الطّالب **ثابت الحافظ** بالفرنسيّة؛ طالب الفرنسيّين به بالخروج من البلاد[٣].

وأمام محاولات المستعمرين تشويه التّاريخ، وتفتيت المجتمع، ومحاولة بثّ الرّوح الانعزاليّة الإقليميّة، والطّائفيّة البغيضة، تمسّك جميع **المثقّفين الوطنيّين** في سوريّة بالرّباط العربيّ، ورغم أنّ نير الاستعمار الفرنسيّ في سوريّة كان شديدًا، فقد تعالت أصوات الاحتجاج على المنابر في المجالس التّمثيليّة، ففي الدّورة التّشريعيّة لمجلس دمشق التّمثيليّ تشرين الثّاني-كانون الأوّل ١٩٢٣م خرج المجلس عن الأطر الضّيّقة الّتي وضعها له المستعمرون الفرنسيّون، وطالب بالإجماع بإلغاء حال الطّوارئ، وتحقيق

١. محمّد البزم شاعر العروبة والشام، م.س، ص٢٢.

٢. مدرسة عنبر أو مكتب عنبر، أو المكتب السّلطاني، مساحته خمسة آلاف متر مربع، بهندسة معماريّة دمشقيّة فريدة، وهو ثاني أكبر دور دمشق بعد قصر العظم، إذ يحتوي على أربعين حجرة موزّعة على طابقين، بني ليكون منزلًا للسّكن بين عامي (١٨٦٧-١٨٧٠م)، إلّا أنّ صاحبه السيِّد يوسف عنبر أفلس قبل أن ينتهي من بنائه، ما جعل الدّولة العثمانيّة تصادر البيت سنة ١٨٨٧م لتسديد ديون صاحبه، وحوّلته إلى مدرسة حكوميّة لأبناء دمشق، فكان أوّل مدرسة إعداديّة في دمشق، كان نظام التّعليم فيه مجاني. حول المزيد عن مكتب عنبر انظر: الأحمد، خالد طه، بدايات التعليم الحديث في دمشق، ص٢٩١-٢٩٢.

٣. بدايات التعليم الحديث في دمشق، م.س، ص٢٩٣-٢٩٤.

الوحدة السّوريّة، وإنشاء جمعيّة واحدة للدّولات الثّلاث (حلب ودمشق، اللاّذقيّة، جبل الدّروز)، وتشكيل حكومة سوريّة موحّدة مسؤولة أمام البرلمان[١]. ويمكننا القول إنّ دور النّخب المثقّفة في التّوعية، والنّضال السياسيّ سلك أحد المسالك الآتية: إمّا الحركة الأدبيّة، أو الصّالونات، والمجالس الثّقافيّة، أو الصّحافة الوطنيّة:

١. الحركة الأدبيّة

لما كان المستعمر يسعى إلى تشويه التّاريخ، والهويّة، وفرض التّجزئة بقوّة الحديد، والنّار على جسد الوطن، انطلاقًا من سياسته الخبيثة (فرق تسد)، واجهه الكتّاب، والمفكّرون، والمثقّفون، والخطباء، والشّعراء الوطنيّون في سوريّة بالرّفض المطلق، واعتبروا تلك السّياسة خطرًا داهمًا، ونافحوا عن وحدة ترابهم، وأمّتهم، ودعوا لزوال الانتداب، ونادوا بالاستقلال[٢]، وأكّدوا على مقوّمات القوميّة العربيّة، وراحوا يعددونها تثبيتًا لها في النّفوس، ولما كانت اللّغة العربيّة أبرزها، حرصوا عليها، وعلى مكانتها، وازدهارها، وعنّفوا أبناءها حين رأوا منهم إهمالاً لها، وانصرافًا عنها، ورفضوا بشدّة دعوة المستعمرين للعاميّة، مدركين سعيهم للقضاء على روح الأمّة العربيّة، فلا تعود للعربيّة رابطة وثيقة تجمع شتات العرب، وتوحيد ما تفرّق منهم[٣]، وقد رافق هذه الحركة الأدبيّة صدور عدد من الصّحف، والمجلاّت الوطنيّة، الّتي كان المثقّفون، والأدباء السّوريّون يعبرّون فيها عن مواقفهم، فبقيت المطابع تقذف بالجديد منها؛ حتّى بلغ مجموع ما صدر منها (١٢) صحيفة، و(٩) مجلاّت موزّعة بين مدن دمشق، وحلب، وحمص، وحماه[٤].

لقد أسهمت جهود الأدباء في توسعة القاعدة المستنيرة، والواعية في البلاد، وحرص الأدباء، والشّعراء السّوريّون على الذّود عن حقّ الشّعب في الحرّيّة أوّلاً، إذ لم يكن في أدبهم ما هو أهمّ من طرد المستعمرين، فالحرّيّة أعلى القيم، كما سعوا إلى كشف زيف

١. لوتسكي، فلاديمير، الحرب الوطنيّة التحريريّة في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، ص١٢٦.
٢. عثمان، هاشم، الصحافة السوريّة ماضيها وحاضرها (١٨٧٧-١٩٧٠م)، ص٦٦.
٣. الوافي في الأدب العربي الحديث، م.س، ص١٥٩-١٦٠.
٤. الصحافة السوريّة ماضيها وحاضرها (١٨٧٧-١٩٧٠م)، م.س، ص٦٦.

مزاعمهم الحضاريّة، القائمة على ارتكاب جرائم القتل لاستغلال خيرات الشّعب، وإبقائه يرسف في أغلال الجهل، والتّخلّف، والعبوديّة[١]، ودأبوا على فضح أساليبه البشعة، وكشف أحابيله، فكان كثير من شعراء سوريّة قد فطن إلى يد الاستعمار الآثمة، الّتي أخذت تقطع أوصال البلاد، وتقسمه إلى دويلات، فوقف في وجههم الشّاعر خليل مردم بيك، وفي ذلك صرخ قائلاً:

ماذا عسىْ أنكرت جلّق حلب بل ما عسى أهل لبنان يربيهمُ؟
بلادنا ويَدُ التقسيم تُعلّقها كأنّها رقعةٌ ينتابها جلمُ[٢]

وفي مواجهة السّياسة التّفتيتيّة حرص أدباء هذا العصر على تصوير الشّعب العربيّ في سوريّة موحّدًا متساميًا فوق المصالح الذّاتيّة، والاختلافات الدّينيّة، والاجتماعيّة، والعرقيّة، والطّائفيّة البغيضة، واستنكروا دسائس الفرنسيّين الخبيثة في استخدام الدّين أداة لتفتيت البلاد، وتفريق العباد، وقد تردّد في هذا الأدب مفهوم الشّعب. وكان الأدباء حريصين على إذكاء روح الحميّة في نفوس أبناء الوطن، وذلك بهدف استمرار الحال الثّوريّة في البلاد، لذلك كانوا يندّدون إذا لاحظوا ميلاً إلى التّراخي، والضّعف أمام المحتلّ، ويمجّدون البطولات حين ينهض الشّعب لمقارعة الاحتلال، مهما بلغت التّضحيات، فكان ما يكتبونه شاهدًا على العصر. وقد ظلّ الهمّ الوطنيّ هو السّمة العامّة لأدب هذه المرحلة، وقد تجاذبت الأدب نوازع سياسيّة، وفكريّة، وجماليّة، ودخلت فنون جديدة كفنّ القصّة، والمقالة، ونظّم الشّعراء السّوريّون القصائد الّتي تصف نقمة الشّعب على المستعمر الفرنسيّ، وتحرّضه، وتؤجّجه، وتصوّر شعور الكراهيّة العارم الّذي كان يختلج ضمائر النّاس لأعداء الحرّيّة. كما هاجم الشّعراء، والمثقّفون السّوريّون جميع المتعاونين مع الفرنسيّين؛ لا سيّما أعضاء المجالس التّمثيليّة، وأصحاب المناصب الحكوميّة، ونوّاب البرلمان، مؤكّدين أنّ التّاريخ لن يرحم موقفهم المتخاذل، وقد حمل هذه الرّاية

١. الأدب العربي السوري، م.س، ص١٨، ٢٤-٢٥.
٢. مردم، خليل، الديوان: مجمع اللغة العربيّة، دمشق ١٩٦٠م.

نخبة من الشّعراء السّوريّين؛ على رأسهم عمر أبو ريشة، وخليل مرم بيك، ومحمّد البزم، وخير الدّين الزركلي، وشفيق جبري[١]، وأديب حلب: قسطاكي الحمصي؛ الّذي أشار في شعره إلى أولئك النّوّاب في سوريّة، الّذين كانوا يتصدّرون قاعة البرلمان تحت حراب الفرنسيّين، فقال فيهم:

نوابنا نوائب كلّهم على لحى منتخبيهم قضوا
ثمّة ميزانيّة ليس من تصديقها بدٌّ أبوا أو رضوا[٢]

غير أنّ أبيات الشّاعر خليل مردم بيك تبقى أطرف ما وصفت به هيئة أولئك النّوّاب من الذّلّة، والمسكنة، والإهانة، وهم في طريقهم إلى تَسلُّم مقاعدهم في قاعة المجلس:

البرلمان وهل أتاك حديثه وحديث من فيه من النوام
نُقلوا إليه ناكسين رؤوسهم نَقل الجبان لساحة الإعدام
ملك الحياء عليهم أبصارهمفعيونهم بمواطئ الأقدام
عَكَفَتْ زواياه على أصنامهم من لي بإبراهيم للأصنام[٣].

٢. الصّالونات والمجالس الثّقافيّة

لقد بدأت الصّالونات الثّقافيّة عند العرب بصفتها جزءًا من ثقافة الحركة الأدبيّة-العربيّة، وصارت مقصدًا لكبار الأدباء، والمثقّفين، والسّياسيّين، وكانت بيوت هؤلاء النّخب في البداية مقصدًا تؤمّه مختلف فئات النّاس من على تنوع مشاربهم الثّقافيّة، والسّياسيّة، والأجناس الأدبيّة الّتي يكتبون بها. وكانت هذه المجالس الثّقافيّة في سوريّة شكلاً من أشكال منظّمات المجتمع المدنيّ. إذ كان على **الأدباء، والمثقّفين السّوريّين** خلال السّنوات الخمسة الأولى من الانتداب الفرنسيّ خوض غمار حرب واعية في سبيل إثبات الهويّة الشّخصيّة العربيّة في سوريّة، لذلك عمدوا إلى تنظيم أنفسهم ضمن رابط، أو

١. الأدب العربي السوري، م.س، ص١٨، ص٢٤-٢٥.
٢. دقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٣٢٨.
٣. الديوان: مجمع اللغة العربيّة، م.س.

عصبة أدبيّة؛ تأطر عملهم في مواجهة المستعمر الفرنسيّ، الّذي سعى إلى تشوية الثّقافة، والتّاريخ، واللّغة، وهويّة المجتمع. وكان الهدف الأساس للصّالونات، والمجالس الثّقافيّة خلق فسحة؛ تكون متنفّسًا للأدباء، والمفكّرين، والمهتمّين بالشّأن العام، للدّفاع عن هوّيّة المجتمع العربيّة، وللنّقاش، وتبادل الأفكار الثّقافيّة الأدبيّة، والسّياسيّة، ما يؤدّي إلى نشر الثّقافة، والأدب، والوعي، ورفع مستوى المجتمع من النّاحية الثّقافيّة، والفكريّة، وقد عانت المجالس الثّقافيّة في سوريّة من صعوبات، وتحديدات مختلفة عبر التّاريخ؛ بداية من ملاحقتها، ومنعها من قبل سلطات الاحتلال الفرنسيّ، وانتهاء بتعطيلها، وإغلاقها[١].

لقد كانت **الجامعة الأدبيّة** من أولى المنتديات الأدبيّة-الفكريّة، الّتي أنشأها مجموعة من الأدباء السّوريّين بمن فيهم خير الدين الزركلي، وشفيق جبري، برعاية كريمة من الملك فيصل في سنة ١٩٢٠م. وبعد الاحتلال الفرنسيّ فرض الفرنسيّون حضرًا على جميع الأحزاب السّياسيّة في البلاد دون استثناء، وكانت أعمال الجامعة الأدبيّة من جملة ما عطّله الفرنسيّون من أعمال. لقد عاد المثقّفون الوطنيّون لإنشاء **الرّابطة الأدبيّة** في دمشق سنة ١٩٢١م، بوحي من الرّابطة القلميّة[٢] في المهجر. لقد كان الاجتماع الأوّل للرّابطة الأدبيّة في الرّابع من شهر آذار ١٩٢١م وهو تاريخ الاتّفاق على إنشائها، وانتخب سبعة أشخاص، ليكونوا اللّجنة التّأسيسيّة لها وهم: خليل مردم بك، وإبراهيم حلمي، وإبراهيم دادا، وحليم دموس، وفخري البارودي، وعبد الله النجار، ونجيب الريس. أمّا الاجتماع الثّاني في ١٢ آذار فكان لوضع قانون الجمعيّة، وقد تمّ انتخاب خليل مردم بك رئيسًا لها، وكانت النّدوات تعقد في دار رئيسها. وتبعًا للظّروف السّياسيّة الّتي كانت قائمة في تلك الفترة، لم يُكتَبْ لجمعيّة الرّابطة الأدبيّة البقاء لفترة طويلة، فقد قامت سلطات الانتداب الفرنسيّة بحلّ الجمعيّة، وإغلاق المجلّة الّتي تصدرها، بالإضافة إلى منع أيّ نشاط ثقافيّ مماثل[٣].

١. البطل، أحمد خالد، الصالونات الأدبيّة الثقافيّة في دمشــق (النشأة، الرواد، صعوبات وتحديات) بين (١٩٢٠-٢٠٠٠م)، ص٦٨-٦٩.

٢. أسّسها أدباء المهجر في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، في نيويورك سنة ١٩٢٠م، برئاسة الأديب جبران خليل جبران.

٣. الصالونات الأدبيّة الثقافيّة في دمشق (النشأة، الرواد، صعوبات وتحديات) بين (١٩٢٠-٢٠٠٠م)، م.س، ص٧٢- ٧٥.

أمّا في حلب فقد لمع اسم الشّاعر عمر أبو ريشة الّذي ساهم في أغلب الصّحف السّوريّة، واللّبنانيّة، وقد شارك عمر أبو ريشة سميه عمر أبو زلام النّضال ضدّ الفرنسيّين، فقد **اشتهر في حلب صالون عمر أبو زلام**، وكان عمر هذا ابنًا لعالم دين مشهود له في حلب، وبالتّالي نشأ الفتى نشأة ملتزمة، ومالت آراؤه صوب الفكر القوميّ، وخلال فترة الحرب العالميّة الثّانية عندما كان لدى سلطات الانتداب الفرنسيّ حرب أخرى في حلب، إلاّ وهي البحث عن عمر وعمر، لقد اعتقد الكثير من أهالي حلب أنّ هذه تسميات مختلقة من قبل الشّعبة الثّانية الفرنسيّة (مخابرات الانتداب الفرنسيّة) لتفتيش بيوت النّاس، بهدف ترويع الآمنين، وتهديد الأهالي بالاعتقال، والسّجن، والإعدام، أو ربمّا أنّ التّسمية تمويهيّة لشخص واحد، في الواقع لقد كان هذا «المثنى» ينشر الفكر القوميّ، ويرفض ضمّ لواء الإسكندورن لتركيا، ويقاوم الانتداب، ويندّد بالهجرة اليهوديّة إلى فلسطين، وكان أوّل هذين العمرين: هو عمر أبو زلام ابن مفتي حلب، والثّاني هو عمر أبو ريشة، وكلاهما تمّت مساعدته على الاختباء خلال مهمّته النّضاليّة من قبل شخص ثالث هو المطران إيلاريون كبوجي، والّذي كان يؤمن بقضيّتهم[١]. وفي سنة ١٩٤٢م حكم على الفرنسيّون على أبو ريشة بالإعدام، وذلك بسبب القصيدة الّتي ألقاها في الاحتفال بذكرى اغتيال الدّكتور عبد الرحمن الشهبندر؛ الّذي أقيم في الجامعة السّوريّة، وهاجم فيها الانتداب الفرنسيّ، والحكم السّوريّ العميل الّذي يتماها مع المستعمرين، ورغباتهم[٢].

الصّحافة السّوريّة ونضال أرباب القلم

لقد انطلقت الأحاسيس القوميّة، وكذلك قوى الحرّيّة المستكينة دفعة واحدة، وابتدأت الصّحف اليوميّة بالظّهور لتشارك في المطالبة بالاستقلال التّامّ، والوحدة السوريّة في جميع أجزائها الأربع، واشتركت في الصّراع ضدّ الاستغلال الاستعماري، وحثّت الرّأي العام على التّمسّك بالحقوق الوطنيّة للبلاد، وقد أصبحت دمشق مركزًا للحركة

١. الصالونات الأدبيّة الثقافيّة في دمشق (النشأة، الرواد، صعوبات وتحديات) بين (١٩٢٠-٢٠٠٠م)، م.س، ص٩٤.
٢. أعلام الأدب العربي المعاصر، سير وسير ذاتية، م.س، ص٣٣.

القوميّة العربيّة، ومنارة تتّجه إليها أنظار العرب، وكانت صحافتها مناط آمالهم؛ لأنّها تدعوا إلى حركة عربيّة تحرّريّة تقاوم الانتداب الفرنسي بشدّة. وأمام هذه الحركة الوطنيّة قامت السّلطات الفرنسيّة بمساعدة الحكومة السّوريّة برئاسة علاء الدّين الدروبي «الّتي أبدت رغبة شديدة في التّعاون مع الفرنسيّين»؛ بتعطيل الصّحف الّتي ظهرت أثناء فترة الاستقلال العربيّ الفيصليّ، وهي صحيفة «**العرب**» لسامي السّراج، و«**المصباح**» لعبد الودود الكيالي، و«**الرّاية**» لمنيب الناطوري، وفرضت تلك الحكومة رقابة شديدة في (٢٧ تموز ١٩٢٠م) على الصّحافة، وتبع ذلك أن أصدر الجنرال غورو أمره بصيغة بلاغ موجّه من مديريّة المطبوعات إلى أصحاب الصّحف، والمجلات «أن يرسلوا نسخًا من صحفهم إلى دائرة الاستخبارات الفرنسيّة لمراقبتها، وتوجيهها الوجهة الفرنسيّة»، بقصد قتل الحركة الوطنيّة، وبالتّالي كانت بعض الصّحف تعطّل إمّا لوقت محدود بموجب هذا البلاغ، أو تعطّل بموجب الرّقابة الشّديدة التي فُرضت عليها[١].

وعلى منبر الصّحافة ألتقى الأدباء، والمفكّرون، وزعماء الحركة الوطنيّة، وبكلمة أخرى فتحت الصّحافة ذراعيها لجميع المثقّفين الوطنيّين لمقارعة المستعمر الفرنسيّ على صدر صفحاتها؛ فكان الشّاعر **محمّد البزم** يرسل إلى الصّحافة، والمجلّات، والمنابر بقصائد وطنيّة سرعان ما كان يردّدها الشّباب، ويحفظها الطّلاّب، ويترنّم بها رجال الأدب، قصائد تعبرّ عن عاطفة وطنيّة صادقة، يمتدح فيها دمشق، ويتغنّى بها، وبرجالها، وبعظماء الأمّة، وأخرى يحثّ فيها على مواصلة الكفاح. كما كان يبعث بكتاباته إلى مجلّة «**الميزان**» والّتي اشتهرت بمقالاتها الثّائرة، والنّقد الرّفيع، والنّكات المبطّنة، حتّى غدت مقالات «الميزان» موضع الحديث في الأسمار، وفي المدارس، وبخاصّة في قاعة الأساتذة في ثانوية دمشق، حيث يجتمع فيها البزم إلى زملائه[٢].

ولمّا كانت الصّحافة الوطنيّة لا ترمي إلى أهداف آنيّة، وخاصّة، بل إلى أغراض الأمّة،

١. الرفاعي، شمس الدين، تاريخ الصحافة السوريّة واللبنانيّة من العهد العثماني حتى الاستقلال (١٨٠٠-١٩٤٧م)، الجزء الثاني: الانتداب الفرنسي والاستقلال، ص٢٩-٣٠.

٢. محمّد البزم شاعر العروبة والشام، م.س، ص٢٢-٢٣.

والبلاد، فإنّ كتّابها من مثقّفي المجتمع السّوريّ كانوا يطالبون بالوحدة السّوريّة، وطالبوا بالحرّيّات الدّيمقراطيّة، وبمجلس نيابيّ منتخب، وحكومة شرعيّة تمثّل أماني الأمّة، وتنتقد المفوّضين السّامين. لكن تلك المطالب عرضتهم لمزيد من الاضطهاد، والتّضييق، والتّقييد من طرف سلطات الانتداب الفرنسيّ؛ وصل إلى حدّ التّعطيل لصحفهم لأكثر من شهرين، ومن هذه الصّحف: «**الرّأي العام**»، و«**العهد الجديد**»، و«**العالم**»، و«**المقتبس**» الّتي أسّسها محمّد كرد علي، والّتي كانت تُعدّ من أهمّ الصّحف السّوريّة، والّتي رفعت راية النّضال ضدّ الانتداب الفرنسيّ؛ وكان من أجرأ ما نشرت مقالاً تحت عنوان: «الفرنسيّون في سوريّة»، ومقالاً آخر بعنوان: «سوريّة في فرنسا»، كما هاجمت حقّي العظم؛ حاكم دمشق -صاحب القبضة الحديدة في قمع الصّحافة الوطنيّة- بالنّقد، والتّجريح لقاء عملاته للفرنسيّين، وتضييقه الخناق على الصّحافة الحرّة[١]. ويصف لنا محمّد كرد علي سياسة المقتبس في قوله: «كنتُ أنزعُ أبدًا إلى إنارة الأفكار، وبثّ الملكات الصّحيحة، وتقوية روح القوميّة العربيّة، وانتهاج سياسة وطنيّة ليس فيها شيء من الكراهيّة». أمّا صحيفة «**ألف باء**» لصاحبها يوسف العيسى، فكانت لا تقلّ في الدّور الوطنيّ عن صحيفة المقتبس، لا سيّما أنّها كانت أكثر الصّحف انتشارًا في سوريّة، وكانت تندّد بالاستعمار الفرنسي عليها، وتندّد بالشّخصيّات الّتي تحوّلت عن مواقفها الوطنيّة، موجّهة لهم السّؤال الدّائم: «هل أعدتم الأمانة إلى أصحابها»؟ في إشارة منها إلى بيعة فيصل[٢].

وتبعًا لذلك فقد كانت بعض الصّحف تعطّل إمّا لوقت محدّد، ثمّ تصدر من جديد؛ مثل صحيفة «**المفيد**»، أو أنّها تعطّل تعطيلاً كاملاً، فيضطر أصحابها لإصدار رخص جديد، ولكن بأسماء أخرى؛ مثلما حصل مع صحيفة «**النّهضة**» لصاحبها البصمجي الّذي عُطّلت صحيفته فأصدر صحيفة أخرى تسمى بـ«**العدل**» في ١٢ شباط ١٩٢١م[٣]، وتماما كما حصل مع صحيفة «**المرسح**» لنجيب كنيدر، والّتي أغلقت ثمّ أعيد إصدارها بعد

١. ليامنة، سايح، الآثار السياسية للانتداب الفرنسي والبريطاني على بلاد الشام (١٩٢٤-١٩٣٩م)، ص٣٨.
٢. سوريّة والانتداب الفرنسي، م.س، ص٥٩.
٣. الآثار السياسية للانتداب الفرنسي والبريطاني على بلاد الشام (١٩٢٤-١٩٣٩م)، م.س، ص٣٨.

استصدار رخصة جديدة لها، ولكن باسمها القديم. وكما حصل لصحيفة «**فتى العرب**» الّتي عطّلتها نظارة الدّاخليّة للمطبوعات، بحجّة أنّها تنشر أنباءً كاذبة؛ والواقع أنّها كانت تذكذر الشّعب بحقوقه السّياسيّة في مقال لها شديد الحماس، وتستنكر الخداع الدّولي الّذي وقعت فيه سوريّة. وهكذا كانت الرّقابة في عهد هذا الاستعمار كالسّيف المسلط على الصّحف، والصّحفيّين في البلاد بدوافع استعماريّة ممنهجة[1].

لم يقتصر اضطهاد السّلطات الفرنسيّة على الصّحافة الصّادرة باللّغة العربيّة، بل تعدّاها إلى **اضطهاد الصحفيّين، ورجال الفكر**؛ من سجن إلى تشريد إلى تعذيب، وإغلاقٍ للصّحف، وكمٍّ للأفواه، وإصدار أحكام الإعدام غيابيًّا. ما دعا بعضهم إلى الهروب من سوريّة، واللّجوء إلى بلدان عربيّة أخرى، وتفرّق آخرون في أوروبا، وأمريكا اللاّتينيّة، ومن هناك واصلوا كفاحهم. عموما لم ينج أحد من الصّحفيّين من تلك الإجراءات التّعسفيّة لسلطات الانتداب، فمثلاً أحيل محرّر صحيفة «**العمران**» الدّمشقيّة إلى المحاكمة. ولم يقتصر الأمر على أصحاب الصّحف الشّعبيّة، بل تعدّاه إلى الصّحف الرّسميّة؛ ما دعا الصّحفي **محبّ الدّين الخطيب** مدير الصّحافة الرّسميّة بالعاصمة إلى الهروب تحت جنح الظّلام مع من هرب من الكتّاب، والصّحفيّين إلى القطر المصري، تخلصا من الاضطهاد الفرنسيّ، والرّقابة الشّديدة المفروضة على صحفهم، وكتاباتهم الوطنيّة. وحلّ محلّ الصّحف الّتي أغلقت، أو عطّلت صحف أخرى ذات نزعات متطرّفة، وأخرى ذات نزعات معتدلة، إلاّ أنّهما اشتركتا في حمل لواء الحركة القوميّة ضدّ الاستعمار الفرنسيّ. وكانت هذه الصّحف القوى الوحيدة الّتي قامت بالتّوجيه القوميّ للشّعب، وكانت بحقّ مدرسة النّضال الوطنيّة. إلاّ أنّ سلطات الفرنسيّين كانت تحاول اتّباع أساليب الاضطهاد، والتّعسّف مع المثقّفين الصّحفيّين الوطنيّين من أجل قمع الحرّيّة في جميع أنحاء البلاد[2]. أما المثقّفون، والصّحفيّون الّذين غيّبتهم سجون الاحتلال الفرنسيّ، تحدّوه وراحوا

١. تاريخ الصحافة السوريّة واللبنانيّة من العهد العثماني حتى الاستقلال (١٨٠٠-١٩٤٧م)، م.س، ج٢، ص٣٠-٣١.
٢. م.ن، ج٢، ص٣١.

ينشدون على مسمع من سجّانيهم الأناشيد الوطنيّة، وكان منها النّشيد الثّائر الشّجيّ الّذي نظمه الصّحفي، والشّاعر **نجيب الرّيس**[١] (١٨٩٨-١٩٥٢م)، والّذي ردّدته حناجر المعتقلين، والمتظاهرين بكلّ بسالة، وإباء:

يا ظلّام السجن خيّم إنّنا نهوى الظلامَا
ليس بعد الليل إلّا فجر مجدٍ يتسامى
إيه يا دار الفخار يا مقر المخلصينا
قد هبطناك شبابا لا يهابون المنونا
وتعاهدنا جميعا يوم أقسمنا اليمينا
لن نخون العهد يوما واتخذنا الصدق دينا[٢].

وأمام كلّ حملات الاضطهاد، والتّضييق، والقرارات التّعسّفيّة استمرّ الصّحفيّون السّوريّون في نضالهم الوطنيّ، فقد دخل الوطنيّون ميدان الصّحافة **أداة صادقة للتّعبير** عن هيجان النّفوس بالكلمة، ولم يضعف الأدباء إزاء ما لاقوه من سجن، واضطهاد، واعتقال، وتعذيب[٣]. ولما كانت بعض الصّحف الّتي تنشر مقالات تناوئ بها فرنسا، كانت سلطات الانتداب تفرض عليها **غرامات باهظة** تضطرّ بعضها إلى التّوقّف عن الصّدور، وبسبب **الرّقابة** كانت بعض الصّحف تصدر بصفحات بيضاء. كما أوقفت الرّقابة أثناء انتخابات المجلس التّمثيليّ، كلاًّ من صحيفة «**المقتبس**» الدّمشقيّة، وصحيفة «**اللّاذقيّة**» الصّادرة في مدينة اللّاذقيّة، وداهمت الشّرطة الفرنسيّة مقرّ صحيفة «**الرّأي العام**»، وصحيفة «**الحقيقة**»، وفي كانون الثّاني سنة ١٩٢٤م أقفلت سلطات الانتداب مكتب صحيفة «**الأحوال**» لمدّة شهر، و«**الأحرار**» حتّى إشعار آخر، لأنّهما انتقدتا تحميل سوريّة جزءًا من الدَّين العثماني،

١. ولد نجيب الرّيس (١٨٩٨-١٩٥٢م) في مدينة حماة، وتلقّى علومه في مدارسها، انتقل إلى دمشق سنة ١٩١٨م، قضى نحو ثماني سنوات من عمره في السّجون، والمنافي، والمعتقلات الفرنسيّة خلال الفترة الزّمنيّة ما بين (١٩٢٠-١٩٤٣م)، وقد نظَم قصيدته «يا ظلّام السّجن» خلال سنوات نفيه إلى جزيرة أرواد سنة ١٩٢٢م، وكان وقتها في العشرينات من عمره، عمل في صحيفة المقتبس إلى أن أصدر القبس سنة ١٩٢٨م. للمزيد انظر: الريس، نجيب، نضال.

٢. الريس، نجيب، القبس المضيء.

٣. الأدب العربي السوري، م.س، ص١٩.

وفي الفترة ذاتها أوقفت صحيفة «**الدّبور**» عن الصّدور. كما شرعت الإدارة الفرنسيّة في سوريّة مجموعة من **القوانين، والقرارات** بواسطة مجلس الممثّلين، تهدف منها إلى تقييد حرّيّة الصّحافة، واضطهاد الصّحفيّين، والحدّ من نشاطهم الإعلاميّ، ومن بين هذه القوانين؛ قرار نيسان ١٩٢٤م القاضي بفرض الرّقابة على الصّحف في دولتي: دمشق وحلب، فقابله صحفيّو دمشق بالاحتجاج، وقاطعوا مجالس الممثّلين، واضربوا خمسة أيّام عن العمل[١].

بموجب تلك القرارات تمّ حذف، وإسقاط مقالات من الصّحف السّوريّة، وجعل وظيفتها مقصورة على نشر أخبار المجتمع، فكانت الصّحف السّوريّة تقابل هذا بترك فراغ أبيض وتقول: «**حذف بمعرفة الرّقابة**»، وكان احتجاجًا صارخًا على مقصّ الرّقيب، ودعوة صريحة للتّأكيد على حرّيّة الصّحافة، واستمرارًا في استنفار الرّأي العامّ ضدّ الاستغلال السّياسيّ، والاقتصادي للبلاد السّوريّة، وإظهار سياسة خنق الحرّيّات العامّة. أمّا قانون ذيل الصّحافة الصّادر في سنة ١٩٢٤م، والّذي أصدرته فرنسا رغبة منها في سدّ الباب في وجه كلّ من ينتقدها من الصّحف السوريّة، نصّ هذا القانون على: «إنّ السّلطات الفرنسيّة تعتبر العلاقات الخارجيّة، والاتّصالات مع الدّول الأجنبيّة من اختصاصها، ولها حقّ التّصرّف بموجب صكّ الانتداب الّذي يخوّله لها قرار عصبة الأمم المتّحدة، وإنّها مكلّفة بالدّفاع عن الأراضي الواقعة تحت سلطانها، وبالتّالي لديها الحقّ في معاقبة فاعلي الجرائم، ومرتكبيها، وضمان سلامة العلاقات الدّوليّة وحفظ النّظام»[٢]. وهكذا احتقن الجوّ العامّ في البلاد، وأصبحت الأمور مهيّأة للانفجار، وبدأ المثقّفون يدعون للثّورة، وقد صوّر **شفيق جبري** في أحد أبياته في آيار ١٩٢٤م حال المرار الّتي جثّمت على صدور السّوريّين فقال:

١. الحرب الوطنيّة التحريريّة في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، م.س، ص١٣١.

٢. الآثار السياسية للانتداب الفرنسي والبريطاني على بلاد الشام (١٩٢٤-١٩٣٩م)، م.س، ص٣٨.

أتبكي العنادل أوطانها ولا يندب المرء أوطانه؟[١]

لما اندلعت الثّورة السّوريّة الكبرى اختفت عشرات الصّحف بسبب تأييدها للثّورة، وتشدّد الفرنسيّين في الرّقابة الصّحفيّة عليها، وفي مقدّمتها جريدة «**المقتبس**» الّتي تمّ تعطيلها لمدّة شهرين، بغية إيقاف الغذاء الفكريّ للمجاهدين الوطنيّين، وقمع الحماس الوطنيّ لأبناء البلاد، ما أدّى بالوطنيّين، والكتّاب، والصّحفيّين القوميّين إلى الالتجاء إلى الدّعايات المستترة، وتوجيه الدّعوة إلى الجهاد سرًّا، وفي المحصّلة لم يبق من هذه الصّحف الوطنيّة إلّا أربع فقط في جميع أنحاء سوريّة، أمّا الصّحف الباقية الّتي تحدث بلسان العناصر الوطنيّة فقد ذهبت ضحيّة الاستبداد الفرنسيّ[٢]. فمثلاً عطّل الفرنسيّون صحيفة «**الرّأي العام**» الدّمشقيّة في (٦ تشرين الثاني ١٩٢٦م) بحجّة أنّها نشرت في العدد رقم ٢٩٥٢ بتاريخ (٢٧ أيلول ١٩٢٦م) مقالاً بعنوان: «انظر إلى أين قادهم تفرنجهم»، كما أنّها اعتقلت صاحبها طه المدوّر لمدّة عشرة أيّام، ثمّ أفرجت عنه بشفاعة العلماء، والوجهاء، ونقابة الصّحف، ولم يسمح لصحيفته بالعودة للإصدار إلى بصورة متقطّعة[٣].

والجدير بالذّكر أنّ **الصّحفيّين السّوريّين في المنفى** كانوا أكثر زخمًا؛ إذ استمرّوا في كتابة المقالات، ونشر قصائد الشّعراء الّتي تندّد بالمستعمرين، وتحثّ أبناء الوطن على مواصلة الكفاح من أجل الاستقلال، فقد أخذت الصّحف في مصر تنشر قصائد الزّركلي، الّتي كانت تنزل أبياتها على المستعمر «سهامًا مسمومة وسياطًا لاهبة، تفضح باطله، وتستثير الرّأي العامّ ضدّه»[٤]. كما إنّنا نقرأ في صحيفة «**الحقيقة**» الّتي أسّسها المغترب السّوريّ الياس عبد الله الخوري (من مدينة يبرود)، في مدينة ريو دي جانيرو في البرازيل، قصيدة للشّاعر **إلياس قنصل** إحياءً لذكرى ميسلون، واستشهاد يوسف العظمة، ووصف ما تركه من أثر عميق في نفوس السّوريّين، بهدف تمجيد معاني البطولة، والإباء، يقول فيها الشاعر:

---

١. جبري، شفيق، ديوان نوح العندليب.

٢. تاريخ الصحافة السوريّة واللبنانيّة من العهد العثماني حتى الاستقلال (١٨٠٠-١٩٤٧م)، م.س، ج٢، ص٥٨.

٣. م.ن، ج٢، ص٦٤.

٤. العطري، عبد الغني، عبقريّات شامية، ص١٩.

دم سفكته من يد الظلم قوّة فزعزع من أركانها كلّ قائم
دم عربي ملؤه المجد والإباء تتيه به العليا بنت المكارم
فخط يراع المجد للشام صفحة تظم إلى أمجادها العظائم
هوى إنما في ساحة العزّ والعلا وتحت قتام بالقذائف عائم
هوى إنما دفاعًا عن الوطن الذي أبى وسيأبى الدهر جرّ الأداهم[١].

في الواقع لم يكن نشر كثير من هذه القصائد في الصّحف اليوميّة، والمجلّات الدّوريّة سوى تعبير عن تلك الحميّة الفائرة في نفوس العرب؛ تجلّت على ألسنة شعرائهم في نداءات شعريّة صادقة، على نحو ما نجده في قصيدة للشّاعر الدّمشقي **أمجد الطرابلسي**[٢] على صفحات «**الرّسالة**» المصريّة يقول فيها:

يا عرب هيّا فانصروا موطنًا للعرب هاج الحقد أفراده
هناك شعب عربيّ الهويحاول الغاصب إنفاده
يسوسه الخسف بأغلالهويدعي بالنار إرشاده[٣]

ولما كان للصّحافة أثر عظيم في نشر أخبار الثّورة السّوريّة ضدّ الانتداب الفرنسيّ سنة ١٩٢٥م، كان لذلك أثر عظيم على أبناء الجالية السّوريّة في المغترب، ففي البرازيل مثلاً طافت تظاهراتهم أهمّ شوارع المدن الرّئيسة؛ منددين بأعمال العنف، والوحشيّة الّتي اتّبعتها فرنسا لمواجهة الثوّار السّوريّين، وأرسل السّوريّون أحمد اللّحّام، وحسن سليم، وعبدو كشفي، وسليم الأعور، وميشيل خوري في مدينة ريو دي جانيرو برقية إلى صحف جنيف، وإلى عصبة الأمم، تستنكر السياسة العدائيّة الفرنسيّة في سوريّة، وتندّد بالاحتلال الفرنسي لوطنهم، وتطالب بضرورة أخذ التدابير اللازمة ضدّ فرنسا، كما نشر أنطون سعادة

١. الحقيقة، العدد ٧٩، تاريخ ٨/ ٢/ ١٩٣٦م.

٢. ولد أمجد الطّرابلسي سنة ١٩١٦م في دمشق، درس في مكتب عنبر سنة ١٩٢٧م، عيّن معلّمًا في جباتا الزّيت سنة ١٩٣٥م، سافر إلى فرنسا سنة ١٩٣٨م، حصل على الدّكتوراه من السّوربون، عاد إلى سوريّة سنة ١٩٤٥م، عيّن مدرسًا في قسم اللّغة العربيّة، ثمّ رئيسًا لقسم اللّغة العربيّة، ثمّ شغل منصب نائب عميد الكلّيّة، وفي سنة ١٩٦٠م انتخب عضوًا في مجمع اللّغة العربيّة بدمشق.

٣. الاتّجاه القومي في الشعر العربي الحديث، م.س، ص٣٥٣.

في مجلته «**الجريدة**» بيانًا يصرّح فيه بأنّه يحمل توقيعات مئات السوريّين الذين يندّدون بسياسة فرنسا، ثمّ أرسله برقيّة احتجاج إلى عصبة الأمم، وإلى صحف إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وأميركا الجنوبيّة، وقد أعقب ذلك اجتماع للجالية الشامية في (٧ تشرين الثاني ١٩٢٥م) في شارع فلورنسو دو أبرو في مدينة ساو باولو، إدان فيه المجتمعون فرنسا التي خالفت القانون الدولي في سوريّة، وقد تضامنت قطاعات واسعة من سكّان البرازيل مع السوريّين بسبب ما حدث في دمشق ١٩٢٥م، حتى أنّ مدينة ساو باولو أضربت إضرابًا عامًا، وقام شبّانها وطلاب جامعتها بمظاهرة صاخبة، وأبرقوا إلى الحكومة الفرنسيّة برقيّات شديدة اللهجة، تندّد بأعمالها الفظيعة في سوريّة[١].

لقد حارب المثقّفون الوطنيّون في سوريّة بالقلم على كلّ صعيد؛ من خلال الصّحف، ومن خلال العرائض الّتي رفعوها إلى عصبة الأمم، وسلطات الانتداب مرارًا مؤكّدين أنّ المستشارين الفرنسيّين المشبعين بالرّوح الاستعماريّة حتّى النّخاع، يخنقون كلّ الطّموحات الدّيمقراطيّة، ويعيقون ممارسة الحكم الذّاتي، وإنّ من أثار سخط المثقّفين السّوريّين بصورة خاصّة هم المستشارون الإداريّون الفرنسيّون، الّذين كانوا يقبضون على زمام السّلطة بكامله على الصّعيد المحلّي، بالإضافة إلى ضبّاط، وصف ضباط الاستخبارات الفرنسيّة، والعسكريّون الأميّون الأفظاظ الّذين يجهلون لغة، وتاريخ، وتقاليد البلاد، ويعتبرون أنفسهم ممثّلين لعرق أعلى يبيح لهم كلّ شيء. وبيّنوا أنّهم ممتعضون من حال الطّوارئ القائمة في البلاد. وشكّوا في عرائضهم باستمرار من التّعسّف الفظّ للمحاكم الفرنسيّة، وأجهزة المخابرات الفرنسيّة، ونظام التّجسّس، والاعتقالات الجماعيّة، والنّفي من غير محاكمة، وتحقيق، ومن تجنّي الضّبّاط الفرنسيّين على السّكّان، ووحشيّة حملات التّأديب الفرنسيّة الّتي تطلق النّار على الأهالي الآمنين[٢].

لقد دعا جونفيل إلى إجراء انتخابات نيابيّة، لكنّ البلاد قاطعت الانتخابات، فثار

١. أحمد، ناهد، المواقف السياسيّة للمهاجرين الشوام في البرازيل من قضايا الوطن فيما بين (١٩٠٤-١٩٢٥م)، ص١١٩١.
٢. الحرب الوطنيّة التحريريّة في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، م.س، ص١٢٩.

غضبه، وراح يعاقب الوطنيّين، ويرسل بهم إلى المنافي، والسّجون، كما حاول التّضييق على الصّحفيّين، ولجم الصّحافة، وقصّ أجنحتها، لكي لا تستمرّ في دعم الثّورة، وتحارب معها؛ فتكون الكلمة إلى جانب الرّصاصة، لذلك أصدر لهذه الغاية القرار رقم ١٣٧ تاريخ ٢٣ شباط ١٩٢٦م بشأن مراقبة المطبوعات، جاء فيه: «وحيث إنّ الثّورة، والاضطرابات تساعد عليهما حملات الأخبار الكاذبة، والتّحريضات على الحرب الأهليّة، وهذه التّحريضات تتابع رغم تنبيهات المفوّض السّامي المتوالية. وحيث إنّ الأخبار الصّحيحة هي موضوعة تحت تصرّف الصّحافة بمهمّة المكتب المنشأ لهذه الغاية، وحيث أنّ حياة الجنود ما وجدت لتكون عبث الطيش الصّحفيّين، وحيث إنّ عددًا من هؤلاء، لم يحسنوا استعمال هذه الحرّيّة الّتي أعطيت لهم تقرّر ما يلي:

- لا يمكن إصدار أيّ نشرة كانت من دون أن يؤشّر عليها مسبقًا حاكم الدّولة، أو مندوبه في المكان الّذي توجد فيه المطبعة المكلّفة إصدار النّشرة.

- إنّ المدير، والطّابع يكونان مسؤولين بالتّضامن عن جميع المخالفات لأحكام هذا القرار، ومعرّضين للعقوبات المنصوص عنها في قرارات ٦ و٢٧ آيار ١٩٢٤م و٢١ نيسان ١٩٢٥م[١].

- لقد كانت حكومة أحمد نامي بك تشكّلت بصعوبة بالغة في نيسان ١٩٢٦م، وقد اشتركت فيها بعض الشّخصيّات على أساس تحقيق المطالب الوطنيّة، وبدأت المفاوضات لإنهاء الثّورة، وسافر دي جونفيل إلى باريس لإقناع الحكومة الفرنسيّة ببرنامجه لكنّه فشل[٢]. ولما أصدر جونفيل دستور لبنان الجديد في (٢٣ آيار ١٩٢٦م)؛ وقد كرّس هذا الدّستور فصل لبنان الكبير عن سوريّة، استقال الوزراء السّوريّون في حكومة أحمد نامي بك في ١٢ حزيران احتجاجًا على ذلك، وهم: فارس الخوري، وحسن البرازي، ولطفي الحفار، فقد تأكّد لهم عدم استعاد فرنسا لقبول البرنامج الّذي اتّفقوا مع دي جونفيل،

١. الصحافة السوريّة ماضيها وحاضرها (١٨٧٧-١٩٧٠م)، ص٨٣.

٢. م.ن، ص٨٤.

فما كان من سلطات الانتداب إلاّ أن اعتقلت هؤلاء الوزراء في ٢٦ حزيران، ونفتهم إلى الحسكة. وبعد أن خمدت الثّورة السّوريّة الكبرى؛ إذ كانت آخر معاركها في الغوطة في آب ١٩٢٧م، عفت فرنسا عن عدد من المنفيّين وهم: فارس الخوري، ولطفي الحفار، وحسني البرازي، وفوزي الغزي، وأديب الصفدي، وبدر الدين الصفدي، وعبد المجيد الطباخ، وسعد الله الجابري، وإسماعيل حقّي، عاد المبعدون إلى دمشق في ٢٨ شباط ١٩٢٨م، وقد استقبلهم البعض في بيروت، والبعض في المحطّات على طريق دمشق، وأقام لهم المستقبلون -ويعدون بالألوف- حفلة في محطّة البرامكة، أنشد فيها الخوري قصيدة حيّا فيها دمشق، وما احتوته من خمائل، وجنّات، وأنهار، وأشبال، وشيوخ، إلى أن قال:

سلام محِبٍّ غالبوه ببعدها فأوشك أن ينهار دون غلابها
ولكنّه في غير فرقة صحبه صبورٌ على مرِّ الحياة وصابِهَا
وقد خاطبته الحادثات بروعها فما وجدته عاجزًا عن جوابها
وها قد دنا يوم الموازين عندنا وكل يمين قد أتت بكتابها
وما كانت الأفعال ذاهبة سدى وكل يد مسؤولة عن حسابها[1].

وبعد الثّورة لمدّة أربعة أعوام تولّت أربع صحف مهاجمة الاستعمار بدمشق وهي «**المقتبس**»، و«**الأنباء**»، و«**الخازوق**»، و«**الشّعب**». وبعد سنة ١٩٣١م تولّت هذه المهمّة صحيفة «**القبس**»، و«**الأيام**»، و«**فتى العرب**»، و«**ألف باء**» في دمشق، و«**الأهالي**»، و«**الوحدة**»، و«**الاتّحاد**»، و«**الجهاد**» في حلب؛ متحدّثة باسم العناصر القوميّة من المثقّفين الشّباب، وقد صودرت هذه الصّحف مرّات عديدة، ولفترات طويلة[2]. فحينما عقدت الكتلة الوطنيّة معاهدة مع فرنسا سنة ١٩٣٦م، لم يجد عمر أبو ريشة المعاهدة مختلفة في سائر بنودها عن معاهدة ١٩٣٣م الجائرة بحقّ الشّعب العربيّ في سوريّة،

١. فارس الخوري حياته وعصره، م.س، ص٩٢، ٩٥.
٢. تاريخ الصحافة السوريّة واللبنانيّة من العهد العثماني حتى الاستقلال (١٨٠٠-١٩٤٧م)، م.س، ج٢، ص٦٩.

فنظّم قصيدته الشّهيرة، والّتي أسماها «**العروس**»، وكان في صوفر في لبنان، وعندما نشرت في الصّحف السّوريّة باعتبار قصيدة غزليّة، كان فارس الخوري أوّل المتنبّهين إلى ثوريّتها الملتهبة؛ فجمعت نسخ القصيدة، وأتلفت، وكان لذلك ردّة فعل عنيفة لدى أهل البلاد[١].

أمّا أهمّ الصّحف الّتي أدّت دورًا كبيرًا على السّاحة السّياسيّة في سوريّة طوال اثنتين وثلاثين سنة من (١٩٣١-١٩٦٣م) هي صحيفة «**الأيام**»، إذ يقول نصوح بابيل عنها: إنّ المسيو روبير دوكه مندوب فرنسا في عصبة الأمم المتّحدة في جنيف ذكر في تقريره عن الصّحافة السوريّة في عهد الاحتلال الفرنسيّ أنّ صحيفة «الأيّام» كانت بلا شكّ أقوى الصّحف في سوريّة رغم معارضتها لفرنسا، وقد عطّلتها السّلطات الفرنسيّة أكثر من مرّة منذ تأسيسها، وكلّما عطّلت سلطات الانتداب الفرنسيّ صحيفة «الأيّام»، كان نصوح بابيل يصدرها باسمها الرّديف «**اليوم**». عمومًا لقد صدر العدد الأوّل من «الأيّام» في (١٠ آيار ١٩٣١م)، لأصحاب الامتياز: هاشم الأتاسي، إبراهيم هنانو، لطفي الحفار، عارف النكدي، سعد الله الجابري، فخري البارودي، وقد جاء في افتتاحية العدد الأوّل: **الغرض من أنشاء هذه الجريدة**: خدمة القضيّة الوطنيّة، والمصلحة القوميّة العربيّة عامّة، وبخاصّة الشّامية (سوريّة، لبنان، جبل الدّروز، جبل العلويّين، فلسطين، شرقي الأردن)، وذلك بما يأتي العمل على نشر الثّقافة الصّحيحة، وبثّ الانظار، والآراء القوميّة، والسّياسة الّتي أخذت بها الأمم النّاهضة ما من شأنه أن يرفع المستوى الاجتماعيّ في الأمّة العربيّة، التّمسّك بالمبادئ القوميّة، والدّعوة إليها. وقد اتّخذت الجريدة من السّلطات الفرنسيّة **موقفًا معلنًا** «تقف هذه الجريدة في سياستها من السّلطة المحتلة موقفًا صريحًا ليس فيه أيّ شيء من الرّثاء، أو المصانعة، ولا من الحذر، والتّهيّب... إنّ سياستنا تقوم على أساس استقلال هذه البلاد، والعمل لهذا الاستقلال، أو جزء منه، فالبلاد لنا، ونحن أصحاب الرّأي فيها. وإذا كانت القوّة المادّيّة قد عطّلت هذا الاستقلال، فإنّ هذا التّعطيل لن يدوم، وجولة الباطل لا تدوم»[٢].

١. عكرمة، مصطفى، عمر أبو ريشة شاعر أمة إطلالة وقطوف، ص١١٦.

٢. الصحافة السوريّة ماضيها وحاضرها (١٨٧٧-١٩٧٠م)، م.س، ص٩٢-٩٥.

ثالثًا: الأدب الثّوري وتفاعل الأدباء السّوريّين مع النّضال المسلّح

لقد استوحى الشّعراء العرب في سوريّة موضوعاتهم الشّعريّة خلال عهد الانتداب الفرنسيّ؛ من وجدانهم الوطنيّ بصورة عفويّة، فمجدّوا نضال أبناء الأمّة في ميدان القتال، وساحات التّظاهر، وفي المعتقلات، والسّجون، فكرّسوا روح الفداء، والتّضحية، كما رثوا الشّهداء، وحزنوا على فراق المنفيّين؛ وتغنّوا بأمجاد الوطن، وتراثه العريق، حتّى أمست الكلمة الهادفة الصّادقة خير سند للرّصاصة الفاتكة، لكن خير مشهد اكتملت فيه الصّورة؛ كان في نفر من الشّعراء السّوريّين الّذين قاتلوا بشعرهم، وسلاحهم، وربمّا كان بعضهم طبيبًا فقاتل بسلاحه، وشعره، ومبضعه، أمثال الدّكتور خالد الخطيب. وهكذا عُدّ شعر هذه المرحلة مادّة تاريخيّة دسمة؛ يمكن لنا من خلالها تتبّع دور هؤلاء الأدباء، والمثقّفين في مواجهة المستعمرين الفرنسيّين، «فالشّعر مرآة صافية تعكس على وجهها الصّقيل صورة نابضة من حياة الأمّة، وكفاحها المرير، وإنّ ما فاضت به قرائح الشّعراء ليس إلاّ روح الأمّة، وسفر نضالها»[1]. أمّا أهمّ الأحداث الّتي تفاعل معها الأدب فهي:

١. معركة ميسلون وأثرها في ضمائر الأدباء والشّعراء السّوريّين

في أعقاب الحرب العالميّة الأولى وانتصار الحلفاء على دول المحور، بدأ المنتصرون باقتسام تركة المنهزمين، واعتبرت بلاد العرب من تركة «الرجل المريض»، رغم أنّ العرب قاتلوا إلى جانب الفرنسيّين والانكليز حتّى أخرجوا الأتراك من البلاد العربيّة، لكن الحلفاء غدروا بالعرب وسعوا إلى تقويض أركان حكومتهم التي أنشأوها في دمشق، ويبدو أنّ دمشق بمؤتمرها العام الذي أخذ ينادي باستقلال سوريّة بحدودها الطبيعيّة؛ أمست كالشوكة في حلوقهم. لم يمض وقت طويل حتى تقرّر الهجوم الفرنسي على دمشق، وقد انعكس قرار الفرنسيّين هذا على حكومة «الدفاع الوطني» فيها، فدعت أكثريّة الوزراء مع الملك فيصل إلى التفاهم، وقبول بنود إنذار غورو، فيما أصرّ وزير الحربيّة يوسف العظمة على المواجهة، وأمام هذا الانقسام نظّم الوطنيّون في دمشق مظاهرات شعبيّة

١. الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، م.س، ص٨.

عارمة، بهدف حثّ فيصل، ووزراءه على خيار المواجهة، وسرعان ما هاجم المتظاهرون قلعة دمشق (مقرّ فيصل)، واحتلّوا الترّسانة، واستولوا على السّلاح من أجل صدّ المعتدين الفرنسيّين، فأرسل فيصل قوّة عسكريّة ضدّ المتظاهرين بقيادة شقيقه زيد، أطلقت النّار على المتظاهرين، وقتلت ٢٠٠ متظاهر منهم. وعندما كان فيصل، ووزراؤه يسعون إلى التّفاهم مع الفرنسيّين، وأعلنوا أنّهم قبلوا بنود إنذار غورو، كان الفرنسيّون مصمّمين على احتلال دمشق، ولم ينفع السّوريين ردّ حكومة فيصل بقبول بنود الإنذار، فقد تعذّر الفرنسيّون بأنّ حكومة فيصل تأخّرت في الإجابة نصف ساعة عن موعد انتهاء المهلة، وعندما زحف القوّات الفرنسيّة من لبنان اتّجاه سوريّة، خرج يوسف العظمة بقوّة وطنيّة بسيطة التّسليح إلى مشارف العاصمة دمشق لصدّ الجيوش الفرنسيّة، مساء يوم ٢٣ تموز، موصيًا: «ابنتي ليلى أمانة لديكم، أرجوكم ألّا تنسوها»، والتقى الجمعان في بطائح ميسلون الرّابع والعشرين من تموز ١٩٢٠م[١].

كان يوسف العظمة يدرك تفوّق القوّات الفرنسيّة بالعدّة، والعتاد، وكان يعلم أنّه لن ينتصر في الأرض، لكنّه كان ينشد انتصارًا أكبر، يبتر فيه لسانًا يقول: «احتلّت فرنسا سوريّة من دون من يقاومها». لقد دامت المعركة نحو أربع ساعات، استشهد فيها يوسف العظمة، ومعه ٤٠٠ جنديّ في روابي ميسلون، وانتهت بتشتّت فلول الجيش العربي[٢]. دخل الفرنسيّون دمشق، وكان قبر صلاح الدين الأيوبي بالقرب من المسجد الأموي؛ أوّل مكان يقصده غورو في دمشق، طرق بسيفه على صفائح القبر قائلاً: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدّين»[٣]. فرد عمر أبو ريشة مخاطبًا أحقاده:

رُبّ غازٍ أذلَّ جاءَ صلاحَ الدينِ فـــي هدأةِ الخلودِ المهابِ
هاتفًا في رمـــيمة الطـــهر إنّا هاهنا يا صلاحُ.. يا لَلّعاب
إنّ للمجدِ دمعةً حين يلقى جثةَ الليثِ عرضةً للكلابِ[٤]

١. الحرب الوطنيّة التحريريّة في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، م.س، ص٩١.
٢. فارس الخوري حياته وعصره، م.س، ص٧٧.
٣. الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة، م.س، ص١٣٩.
٤. عمر أبو ريشة شاعر أمة إطلالة وقطوف، م.س، ص١٨٩.

لقد استقبلت بعض نخب المجتمع الدّمشقيّ الفرنسيّين بالترّحاب، وأقام حكومة الدّروبي حفلاً تكريميًّا لهم في (٤ آب ١٩٢٠م) في دار الحكومة، وأثنى غورو على موقفهم قائلاً: «لولا حكمتكم في قبولكم الأمر الواقع لما كانت دمشق تخلّصت من التّدمير تحت وابل القنابل»، فردّ عليه رئيس الحكومة علاء الدّين الدروبي متحدّثًا عن أمجاد الثّورة الفرنسيّة، ما قدّمته للعالم من حرّيّات، وإنّ من دفع فيصل للحرب هي فئة من غلاة الوطنيّين، وأكثرهم دخيل على سوريّة[١]، واستجاب الدّروبي لشروط فرنسا بدفع الغرامات، وتقديم كلّ التّسهيلات لقوّات الاحتلال[٢].

لم تكن معركة ميسلون بالحدث العادي، بل كانت فاجعة تحطّمت فيها أحلام الأمّة بالتّحرّر، والاستقلال، فراح الشّعراء يرثون في قصائدهم الشّهيد البطل يوسف العظمة الّذي ضحّى بروحه قربانًا للحرّيّة، كما لو أنه جسَّد الوطن بنفسه؛ بتضحيته تلك، وكان الشّاعر **خليل مردم بيك** في طليعة من رثوا القائد العظيم، فقال فيه:

فديتك قائدًا حيًّا وميتًا رفعت لكلِّ مكرمة صُوَاها
غضبت لأمّة منها معدٌّ فأرضيت العروبة والإلها
فيا لك راقدًا نبّهت شعبًا وأيقظت النّواظر من كَرَاها[٣].

كما رثاه شاعر المهجر الكبير **إيليا أبو ماضي** في قصيدته «تحيّة الشّام» فقال فيه:

بأبي وأمي في العراء موسد بعث الحياة مطامعًا ورغابًا
لما ثوى في ميسلون ترنحت هضباتها وتنفست أطيابًا
وأتى النجوم حديثه فتهافتت لتقوم حراسًا له حُجّابًا
ما كان يوسف واحدًا بل موكبًا لنور غلغل في الشموس فغابا[٤].

---

١. انظر الخطابين بالكامل في كتاب: سوريّة والانتداب الفرنسي، م.س، ص٢٥-٢٩.
٢. الخطيب، مصطفى، تاريخ دمشق الحديث والمعاصر، ص٢٠٤.
٣. الديوان: مجمع اللغة العربيّة، م.س، ص٢١٥.
٤. أبو ماضي، إيليا، الديوان: تبر وتراب، ص١٣.

٢. سقوط دمشق وأثره في ضمائر الأدباء والشّعراء السّوريّين

منذ انتصار الجيوش الفرنسيّة الغازية في تلك المعركة غير المتكافئة، ومنذ دخول الفرنسيّين دمشق كان رد **الأدباء والمثقّفين السّوريّين** عنيفًا[١]، وقد وقف الأدباء من هذا الحدث الأليم موقفًا جللاً؛ وكان في مقدّمتهم الشّاعر الدّمشقي خير الدّين الزّركلي، الّذي يقدّر له أن يعاصر جلاء الأتراك عن البلاد العربيّة، وأن يعاصر العهد العربي زمن ملكيّة فيصل، وأن يعاصر انهيار الأماني الوطنيّة بالاستقلال، والحرّيّة مع دخول الفرنسيّين دمشق إثر معركة ميسلون، بعد أن حشد لها الفرنسيّون كلّ أسلحتهم، ويبدو أنّ الزركلي كان أكثر الشّعراء فاجعة على سوريّة، فقد اهتزت لهذا الحدث مشاعره؛ وقد تجلّى ذلك في قصيدته الملحميّة «الفاجعة»؛ الّتي كتبها بعد سقوط دمشق مباشرة، والّتي خلد فيها نضال أبناء شعبه في ميسلون، والعدوان السّافر على وطنه، وصوّر فيها أحرج السّاعات من تاريخ وطننا، والأكاذيب الّتي روّج لها المستعمرون؛ بأنّهم رسالة حضارة، وتمدّن، وبحجّتها أخضعوا البلاد، والعباد، وممّا جاء فيها:

الله للحدثان كيف تكيد بردى يغيض وقاسيون يميد
بلد تبوأه الشقاء فكلّما قدم استقام له به تجديد
ما تنفع الحجج الضعيف وإنّما حقّ القويّ معزّز معضد
غلت المراجل فاستشاطت أمّة عربيّة عضبًا وثار رقود
زحفت تذود عن الديار ومالها من قوّة فعجبت كيف تذود
الطائرات محوِّمات حولها والزاحفات صراعهن شديد
ولقد شهدت جموعها وثابة لو كان يدفع بالصدور حديد
جهروا بتحرير الشعوب وأثقلت متن الشعوب سلاسل وقيود
خدوعك يا أم الحضارةفارتمت تجني عليك فيالق وجنود
أقصيت عنك ولو ملكتأعنتي لم تنبسط بيني وبينك بيد
والشعب إن عرف الحياة فما له عن درك أسباب الحياة محيد[٢]

---

١. الأدب العربي السوري، م.س، ص١٨.

٢. الزركلي، خير الدين، الأعمال الشعرية الكاملة، ص١١٦-١١٨.

لقد قرّر المجلس العسكري التّابع للفرقة الثّالثة من الجيش الفرنسيّ في الشّرق، والمنعقد في دمشق في التّاسع من آب ١٩٢٠م الحكم بالإعدام غيابيًّا على ٣٢ رجلاً من قيادات الحركة الوطنيّة، ومصادرة ممتلكاتهم، كان من بينهم خير الدين الزركلي، الّذي أسندت له تهمة التّحريض على فرنسا؛ بعد أن جهر بعدائه لها، من خلال صحيفته «**المفيد**»، الّتي يصدرها في دمشق، ولأنّه نعتهم بالغدر، والخيانة، ودعا السّوريّين إلى مقاومتهم، فاضطرّ مرغمًا إلى أن يترك البلاد، ويهرب منها بيومين اثنين إلى الحجاز، وعاد فيما بعد إلى عمان[١]، وهكذا فقد نكّل الفرنسيّون بالزّركلي مرّتين، في المرّة الأولى عندما احتلّوا وطنه، وفي المرة الثّانية عندما أجبروه مرغمًا على المنفى؛ بعد أن أصدروا بحقّه حكم الإعدام[٢].

أمّا الدّكتور **خالد الخطيب** الّذي نذر حياته على قصرها (٣٥ سنة) للثّورة على المستعمرين، كان طبيب الثّورة، وشاعرها. لقد ترك الخطيب مدينته حماة ليلتحق بالجيش العربيّ الّذي نظّم صفوفه وزير الحربية يوسف العظمة. كان دور الطّبيب خالد أن يكون في قرية الدّيماس مع الفرقة الطبيّة الملحقة بالجيش. وبعد واقعة ميسلون كان خالد الخطيب من رجال الثّورة الّذين قبضت عليهم سلطات المستعمر الفرنسيّة، وصار في جملة المعتقّلين في جزيرة أرواد، واستمر سجنه نحو سنة، ونصف السّنة، فكتب الطّبيب لأبيه يشكو حاله:

سجنت ولم أسجن لأمر يشينني ولكن لما فيه عَلائي وسؤددي
فحال عليَّ الحول والسجن موطني وما زال قيد الظلم في معصم اليد[٣]

لقد كانت السّنوات الّتي أعقبت الحرب العالميّة الأولى مشوّشة الرّؤى، بحكم الاتّفاقيّات، والوعود السّرّيّة، لكن أكثر ما هيّج مشاعر الأدباء العرب، هي مبادئ الرّئيس الأمريكي ولسون، الّتي ارتكزت على «حقّ تقرير المصير للأمم المستضعفة»، فقد أسكرهم

١. قنبس، أكرم جميل، خير الدين الزركلي شاعر الوطن، ص٣٢-٣٣.
٢. الجندي، أحمد، شعراء سوريّة، ص٢٢-٢٣.
٣. الداية، محمّد رضوان، من تاريخ الشعر في سوريّة، ص٤١-٥٦، ٤٣-٤٥.

هذا المبدأ حتّى تغنّوا به وانتشوا؛ ولم يتردّدوا في مدح أمريكا، وسياستها ورئيسها، وكان منهم عبد الحسن الكاظمي، وإلياس فرحات، ومسعود سماحة وغيرهم، إذ حسبوها منجاة لهم، من طوفان الاستعمار الّذي أغرقهم[١]. حتّى أنّ وصول كراين إلى دمشق في (٢ نيسان ١٩٢٢م) أعطى دافعًا جديدًا للوطنيّين، والمثقّفين السّوريّين لاستمرار بالمطالبة باستقلال بلادهم بالأساليب السّلميّة، اجتمع كراين بالأعيان، والأدباء، وبطلاب معهد الحقوق - الجامعة السّوريّة، وبعدد من عامّة الشّعب؛ الّذين استقبلوه بالأهازيج القوميّة، والأناشيد الوطنيّة. ولما كان موعد مغادرة كراين دمشق ٦ نيسان، واعتزم الرّحيل عنها اجتمع جمهرة من المثقّفين، والأدباء الشّبّان لوداعه، وخطب بعض الشّبّان خطبًا حماسيّة، وهتفوا بسقوط الانتداب الفرنسي، وأخذوا آخرون ينشدون أناشيد العهد الفيصلي:

نحن لا نرضى الحماية لا ولا نرضى الوصاية

نحن أولى بالرعاية لبني العرب الكرام[٢].

لم يتّخذ الفرنسيّون أيّ خطوة سلبيّة أثناء وجود كراين في دمشق، وتركوا للصّحافة، وللاجتماعات، والنّشاطات السّياسيّة هامشًا كبيرًا من الحرّيّة، حتّى أنّهم يغلقوا أي صحيفة أثناء وجود كراين في سوريّة حتّى لا يظهروا بمظهر من يضطهد الصّحفيّين، ويقمع حرّيّة الرّأي[٣]، لكن وداع كراين الّذي تحوّل إلى مظاهرة شعبيّة حُمل فيها الشهبندر على الأكتاف أخاف السّلطات الفرنسيّة؛ فهي لم تألف هذا المشهد في دمشق منذ سقوطها قبل سنتين، وهكذا بعد مغادرة كراين دمشق اعتقلت سلطات الانتداب عددًا من رموز البلد في صباح السّابع من نيسان وكان منهم: عبد الرحمن الشهبندر، وحسن الحكيم، وسعيد حيدر، ومنير شيخ الأرض، وعبد الوهاب العفيفي وآخرون[٤]. لقد ساء النّاس فعل الفرنسيّين، واجتمعوا في الجامع الأموي لأداء صلاة الجمعة؛ فخطب فيهم الدّكتور

١. الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، م.س، ص٢٨٧.

٢. المشاقبة، ياسر علي، عبد الرحمن الشهبندر (دراسة في تاريخ سوريّة السياسي ١٩١٨-١٩٤٠م)، ص٥٦-٥٨.

٣. تاريخ الصحافة السوريّة واللبنانيّة من العهد العثماني حتى الاستقلال (١٨٠٠-١٩٤٧م)، م.س، ج٢، ص٤١.

٤. عبد الرحمن الشهبندر، م.س، ص٥٩.

خالد الخطيب، وحثَّ النّاس على التّظاهر أمام القنصليّات الأجنبيّة للمطالبة بالاستقلال، وبالفعل خرجت المظاهرات من مساجد دمشق، وطالب المتظاهرون الّذين ساروا إلى دور القناصل بإطلاق سراح المعتقلين. فما كان من الفرنسيّين إلّا أن اعتقلوا توفيق الحلبي، والدّكتور خالد الخطيب الّذي حُكم عليه بالسّجن عشر سنوات، ثمّ أرسلوه إلى جزيرة أرواد ليقضي هناك محكوميّته[١].

اضطربت دمشق، وهاجت، وكثرت الاجتماعات، وأقيمت المظاهرات، فردّت فرنسا في صباح ٩ نيسان بالأحكام العرفيّة، فأضربت دمشق في صباح ١٠ من نيسان، وعطّلت الأعمال، كما أضرب طلاب المدارس، وخرجت المظاهرات في سوق الحميديّة قرب الظّهر، وتأزّم الموقف بعد سقوط طالبين، وجرح ستّة آخرين. لقد ألهب أحكام المحاكم الفرنسيّة على الشهبندر، ورفاقه الشّارع السّوريّ فتجدّدت المظاهرات، والصّدامات[٢]، ولم يستطع الفرنسيّون السّيطرة على الموقف إلّا بشقّ الأنفس، حتّى أنّ الفرنسيّين سجّلوا في سنة ١٩٢٢م، وحدها ٣٥ حركة ثوريّة كبّدتهم مئات القتلى، وقد أسفرت تلك المظاهرات عن الإفراج عن المعتقلين[٣]، ويصف لنا خالد الخطيب أسره في أرواد -قبل إطلاق سراحه- شعرا، فيقول:

أرواد يا دار بؤسي عنها المظالم تروى
لأنت باستيل هذه البلاد يا شرّ مثوى
يا غاديا في حماها لا ذاق قلبك شجوا
ألم ترى الليث فيها في ظلمة السجن يطوى؟[٤]

لكن عندما تبيّن للعرب أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة لا تختلف عن فرنسا في زيف وعودها، وأنّ مبادئ ولسون ما هي إلّا سراب، وكذب، كان ردّ الفعل شديدًا لدى شعراءهم، فعبرّوا عنه بمرارة بالغة، وكان ممّا قاله خير الدين الزركلي في هذه المناسبة:

---

١. من تاريخ الشعر في سوريّة، م.س، ص٤٣.
٢. عبد الرحمن الشهبندر، م.س، ص٦٠.
٣. تاريخ الصحافة السوريّة واللبنانيّة من العهد العثماني حتى الاستقلال (١٨٠٠-١٩٤٧م)، م.س، ج٢، ص٤١.
٤. من تاريخ الشعر في سوريّة، م.س، ص٤٧.

وعود ولسن كم أضللت من فئة لأنت أشأم ما سيست به الأمم
أيدَّعون حقوقًا في مواطننا والمين أقبح ما يطوى عليه فم[١] .

٣. ثورة حوران ١٩٢٠م وأثرها في ضمائر الأدباء والشّعراء السّوريّين

عندما دخل الفرنسيّون دمشق حاولوا أن يهدّئوا الموقف؛ فألقوا بالمسؤوليّة كلّها على عاتق الأمير فيصل، الّذي كان قد انتقل إلى الكسوة وقت معركة قاسيون، إذ أذاع الجنرال الفرنسي غوابيه بيانًا على هيئة الوزراء قال فيه: «**إنّ الأمير فيصل قد أشرف ببلاده على قيد أصبعين من الهلاك**»، فلمّا سمع فيصل البيان عاد من الكسوة ليدافع عن نفسه أمام هذه الاتّهامات، ولم يلبث أن أتاه كتاب باسم حكومة فرنسا يدعوه إلى مغادرة البلاد في ٢٨ تموز، فلم يجد بدًّا من مغادرة دمشق إلى **درعا**، وكانت هي البقعة الوحيدة الّتي بقيت من سوريّة حرّة، ولم تطأها أقدام الفرنسيّين بعد، وما أن نزل فيصل سهل حوران حتّى التفّ حوله شيوخ هذا السّهل، وهم الأمير إبراهيم سليم الصّالح الزعبي، والأمير إسماعيل تركي الحريري، وظلّوا محيطين به ثلاثة أيّام، يظهرون عواطف المحبّة، والإجلال، ما أقلق الفرنسيّين، وأربكهم، فحلّقت الطّائرات فوق سهل حوران، وألقت المناشير الّتي تنذر فيها أمراء السّهل بقصفه بالمدفعيّة، وبضرب بلداتهم بقنابل الطّائرات، إن لم يغادره فيصل خلال عشر ساعات. وبالتّزامن وصلت برقية للملك فيصل من رئيس الوزراء علاء الدّين الدروبي يذكّره فيها بضرورة التّعجيل بمغادرة درعا إلى حيفا، أو معان حقنًا للدّماء، وتجنيب حوران المصائب، والخراب، فغادر الملك فيصل درعا في الأوّل من شهر آب عبر القطار إلى حيفا حقنًا لدماء أهل حوران[٢] . لقد أثار نَفَسْ الأمير فيصل المهادن استياء الشّارع الشّعبيّ في عموم سوريّة ولبنان، حتّى أنّ بعض **الزّجالين اللّبنانيّين** الذين مدحوه من قبل، عادوا وهجّوه بتهكّم يعكس مرارة الواقع الّذي انتهت إليه الأمور، إذ قال أحدهم:

يا أمير وش إلك بالحروب؟ هَيدي فرنسا ما أنك قدها

---

١. الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، م.س، ص٢٨٧.

٢. فارس الخوري حياته وعصره، م.س، ص٧٨؛ وانظر: سوريّة والانتداب الفرنسي، م.س، ص١٤.

هيدي دول بدا دول راعي غنم ما يردها

لقد كان لزعماء سهل حوران دور كبير في طرد جيوش الاتحاد والترقي من سوريّة؛ إثر مذبحة طفس الشهيرة في أيلول ١٩١٨م[١]، وكان لهم دور كبير في دعم زعامة فيصل في سوريّة، وقد ظلّوا مدفوعين ضدّ فرنسا بعد أن سقطت دمشق، وحاولوا أن يبقوا فيصل بينهم ويلتفوا حوله، بعد أن سقط عرشه في دمشق، إلّا أنّ تهديدات الفرنسيّين باستخدام الطّيران الحربيّ؛ أجبرت فيصل على مغادرة حوران حقننا للدّماء، ما جعل أهلها يستاؤون؛ فتهدّدوا، وتوعّدوا، وأجبروا قوّة فرنسيّة مؤلّفة من عشرين جنديًّا فرنسيًّا (من السّنغال) بالعودة إلى دمشق بذات القطار الّذي وصلت فيه[٢]. وتجدر الإشارة إلى أنّه في الفترة الّتي أقام بها الملك فيصل في درعا، كان يصحبه الخطيب، والأديب **حبيب أسطفان**[٣] (١٨٨٨-١٩٤٦م)، ورغم أنّ الفرنسيّين قد بذلوا كلّ وسيلة لاستمالته، وحاولوا أن يثيروا فيه النّعرة الدّينيّة مذكّرين إيّاه بأنّه مسيحيّ، إلّا أنّه أبى إلّا أن يكون لسان حال العروبة، فلمّا غادر فيصل درعا، ألقى خطبة عصماء على الجموع الّتي احتشدت في محطّة القطار، وممّا جاء في بيانه: «**يا أبطال حوران.. إنّ الاستعمار هو أشدّ فتكًا من الوباء، فالوباء يأتي ويفتك بالأرواح ثمّ يزول، أمّا الاستعمار فهو وباء عليكم وعلى الأحفاد، والأجيال، فبلاء الاستعمار قد خيّم ظلّه المرعب فوق رؤوسكم، فإن لم تذودوا عن أرض الوطن بالسّلاح فتك بكم، وأفناكم، فلتشربوا الصاب والحنظل، لتكفوا أنسالكم مرارة. يا أبطال حوران لا ترجوا خيراً من الفرنسيّين، فهم دخلاء مستعمرون ظالمون، وأنتم لم تألفوا سوى مشقّ الحسام، وقد تاقت الزّنود إلى فري العظام، ونثر الرؤوس فحوّطوا المستعمرين بالسّيوف، وكونوا كالبركان إذ يتّقد، وأصمدوا للنّوائب، والكوارث فالحرّيّة هي الحياة، ومن فقدها**

---

١. حول مذبحة طفس وبشاعتها، ودور الأمير الشهيد طلال الحريدين وإسهامات أبناء سهل حوران في طرد الاتراك من سوريّة، انظر: العمري، صبحي، أوراق الثورة العربيّة.

٢. سوريّة والانتداب الفرنسي، م.س، ص٣٣-٣٥.

٣. يعدّ من أشهر خطباء العرب في بلاد الشام، كان من مستشاري فيصل، يحمل دكتوراه في العلوم الفلسفيّة واللاهوتيّة من روما.

فلا حياة له». ثمّ ألقى الأمير إسماعيل الحريري كلمته المشهورة الّتي قال فيها ما يلي: **«يا أهل حوران لقد سمعتم ما تذوب له القلوب أسىً على حاضركم، وأنّ مستقبل أبنائكم لفي أعناقكم، فلا تورثوهم الذلّ، والخنوع في أحضان المستعمرين، لقد قامت الثّورات في جبال عامل، وصهيون، والشّمال، فاستعدّوا يا أبطال حوران فلقاء العدو بات قريبًا، وسأقودكم، وأكون أنا، وأولادي، وعشيرتي في الطّليعة فداء للحرّيّة، والوطن»**[١].

لقد وصلت تقارير إلى الفرنسيّين كثيراً من الّذين حكمت عليهم المحاكم العسكريّة الفرنسيّة بالإعدام ما زالوا يقيمون في درعا، ويتنقلون بحرّيّة من درعا إلى الرمثا، وإربد، والأزرق[٢]، وأنّ أهل حوران يحضرون لعصيان مسلّح ضدّهم، وأنّهم يرفضون الاعتراف بشرعيّة الانتداب، وكان رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي قد تلقّى برقيّة مشفّرة من محافظ حوران أبو الخير الجندي صباح يوم الخميس (١٨ آب ١٩٢٠م)، تفيد بذلك أنّ أمراء حوران عقدوا اجتماعًا كبيراً في إربد للانتقام من الفرنسيّين، ومهاجمة دمشق. أشار المندوب المفوض السّامي الفرنسيّ أن يسافر كلٌّ من رئيس الوزراء السّوري علاء الدّين الدروبي برفقة حكومته إلى حوران؛ ليقنع زعماءها بضرورة قبول الانتداب الّذي خضعت له كامل سوريّة، ودفع غرامة قدرها مائة ليرة ذهبية عثمانيّة، والتعهّد بإمداد العاصمة بالقمح. لم يجرؤ فارس الخوري -رغم أنّه كان وزير الماليّة في هذه الحكومة- على السّفر إلى حوران. وحاول الخوري إقناع الدروبي بالعدول عن الفكرة، وبيّن له خطورة الموقف، ومدى نقمة أهل حوران عليه نتيجة مواقفه من الملك، وتعاونه مع الفرنسّيين، إلاّ أنّه لم يفلح. سَافر كلٌّ من عبد الرّحمن اليوسف رئيس مجلس الشّورى، وعطا الأيوبي وزير الدّاخليّة، والشّيخان: عبد القادر الخطيب، وعبد الجليل الدرّة؛ الّذي درَّس في حوران سابقًا، برفقة رئيس الوزراء علاء الدّين الدّروبي إلى حوران بواسطة القطار[٣]، حاول أحد وجهاء بلدة خبب أن يثني الوفد الحكومي على متابعة الطّريق عندما توقّف القطار في

١. الحريري، نبيل زين العابدين، حوران في التاريخ، ج١، ص١٥٩.

٢. محاسيس، نجاة، معجم المعارك التاريخيّة، ص٢٠٨-٢٠٩.

٣. فارس الخوري حياته وعصره، م.س، ص٨٢. وانظر: زرزور، فارس، معارك الحرية في سوريّة، ص١٩٠-١٩١.

بلدته، بعد أن بيّن لهم خطورة الموقف، ونصحهم بتأجيل الزّيارة ريثما تهدأ العواطف، لكن ما إن بلغ هذا القطار محطّة خربة غزالة، والعلم الفرنسي يرفرف في مقدّمته، وكانت المشاعر كلّها محتقنه، حتّى بادر أحد الجنود الفرنسيّين (السنغال) من مرافقة رئيس الوزراء بإطلاق النّار على الأهالي الواقفين في محطّة القطار، فسقط بعضهم على الأرض مضرجًا بدمه، فكانت تلك الطّلقات الشّرارة الّتي فجّرت الموقف، هاجمهم الثّوّار من أهل حوران محطّة القطار بقيادة الأمير إبراهيم سليم صالح الزّعبي، وقتلوا الجنود الفرنسيّين من مرافقة رئيس الوزراء، فترجّل عبد الرحمن اليوسف مذعورًا من القطار، وصعد الدّور الثّاني من المحطّة، حيث يسكن مديرها، ومن هناك اتّصل بالفرنسيّين يطلب النّجدة منهم، فوجد أنّ الثّوّار قد قطعوا خطوط البرق، ولما تبعه علاء الدّين الدّروبي أصيب برصاصة في ظهره؛ فأردته قتيلاً على الفور، قُتل الدّروبي، واليوسف في (٣١ آب ١٩٢٠م)، ونجا الأيوبي بأعجوبة بفضل أحد تجّار حوران الّذي أخفاه في بيته حتّى سكنت الأمور[١]. فنظّم القروي (رشيد سليم الخوري) في هذه الحادثة أبياتًا عن غورو الّذي خسر أكثر الوزراء إخلاصًا له، فقال:

من قمح حوران أراد وليمـةً فأتاهُ سُمُّ الموت من حوران[٢]

أرسلت فرنسا حملة عسكريّة لاحتلال حوران، وقمع ثورتها بقيادة الكولونيل بوليه؛ وكانت آخر بقعة في سوريّة تطأها أقدام المستعمر الفرنسيّ، تصدّى لها أهل حوران على طول مسار الحملة من تلال المانع عند بلدة الكسوة، حيث تكبّد الطّرفان خسائر فادحة، حتّى خربة غزالة، مرورًا بقرى غباغب، وجباب، والشّيخ مسكين، وداعل، حيث أخذ الفرنسيّون يزحفون بموازاة خطّ حديد الحجاز، وطريق القوافل القديم المعروف بطريق الحجّاج، واستمرت المعارك عدّة أسابيع على طول هذين الطّريقين عند جميع المحطّات، والقرى الكبرى، وقد تصدّى أهل حوران لجبروت فرنسا[٣]، ويقول أحد

١. سوريّة والانتداب الفرنسي، م.س، ص٣٣-٣٥. وانظر: الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة، م.س، ص١٤٧.
٢. الخوري، رشيد سليم، الأعاصير، ص٣٧.
٣. الحرب الوطنيّة التحريريّة في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، م.س، ص١٣٩.

الشّعراء مهيبًا بأهل حوران، وبطولتهم:

قسمًا بجرحك أبا البطــولة زَعزَعَتْ عرشًا تربع فوقه جزار
سنظلّ نقذفهم بأصيد سيد حتى يزول الغاصـــب الغدّار[١]

لم يتوانَ المستعمرون عند إعدام عدد من الثّوّار[٢] دون محاكمة، وهدم بيوت زعماء الثّورة، واستجابة من الطّبقة المثقّفة السّوريّة مع النّضال الوطنيّ، بعث حزب الاتّحاد السّوريّ «وريث حزب اللّامركزية، ومقرّه القاهرة» في أيلول ١٩٢٠م إلى قادة الحكومات الغربيّة، والبرلمانات، والصّحف، وإلى رئيس الولايات المتّحدة ويلسون احتجاجًا على أعمال الفرنسيّين الوحشيّة في سهل حوران[٣]. وراح الشّاعر القرويّ يستثير حميّة سكّان جبل لبنان ليقفوا إلى جانب أهل حوران في هذا الحدث الجلل، ويستنهض همّتهم، مذكرًا إيّاهم أنّ كلا الإقليمين كانا من مُلك غسان[٤]، فيقول:

حوران هَبَّ إلى الحسام كأنما هو وحده العاني وأنت الهاني؟
لم يبق غيرك في الورى مستعبدًا لم يبق غيرك أيها اللبناني
أين التراث تراث أبطال الحمأين البقيّة من بني غسانِ؟
لا تنكروها فالدم العربي قد جَلّتْ أصالتهُ عن النكرانِ[٥]

لقد ساند أهالي حوران عشائر البدو بني نعيم بزعامة الشّيخ صالح الطحان, وعشائر الفضل بزعامة الشّيخ محمود الفاعور، وعشائر السّلوط بزعامة الشّيخ أحمد العياض، وقد تعرّضت بلدات، وقرى حوران للقصف بالطّيران، والمدفعيّة، وأحرق الجنود الفرنسيّون المنازل، وقرى بكاملها، ونهبوا الفلّاحين، وقتلوهم بلا رحمة، «وعمدوا إلى إثارة الفتنة؛

١. حوران في التاريخ، م.س، ص٣١٠.

٢. أعدم الفرنسـيّون سـتّة من ثوار بلدة غباغب، وعدد من ثوّار من خربة غزالة، وعلمة في المرج الأخضر بمدينة دمشـق، بتهمة قتل الدّروبيّ واليوسف، وهم: زعل سليم الزعبي، صلاح الدّين المصري، محمّد يوسف الحريري، طالب عيسى الحريري، حسين الحاج في العشرين من أيلول ١٩٢٠م، بينما تمكّن الأمير فرحان غازي الحريري، والأمير إبراهيم سليم الصّالح الزّعبي الفرار من سجن القلعة بدمشق، واللّجوء إلى الأمير فواز باشا بركات الزّعبي صاحب الرّمثا.

٣. الحرب الوطنيّة التحريريّة في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، م.س، ص١٤٩.

٤. حوران في التاريخ، م.س، ص٣٠٩.

٥. الأعاصير، م.س، ص٤٠-٤٢.

فعلى حدود جبل الدّروز، ومنطقة اللّجاة الصّخريّة المحاذية له، قُتل صاحب قرية نجران الدّرزيّة، وانتقامًا للقتيل هاجم الدّروز بقيادة عبد الغفّار الأطرش، ومن ثمّ سلطان الأطرش منطقة اللّجاة، وأخذوا يدمّرون مساكن البدو، تراجع البدو إلى حوران، فتبعهم الدّروز، وهكذا أصبحت حوران مهدّدة، الأمر الّذي جعل الحوارنة يكفّون عن قتال فرنسا»[١]. ويثني الشّاعر القروي على ثورة حوران، وفتيانها، ويبيّن لهم أنّهم، وإن لم يؤدّوا بنصر الله تعالى، يكفيهم أنّهم ماتوا أحرارًا، إذ لم يقبلوا الذلّ، أو المهانة، إذ يقول:

فتى حوران لا لاقيت ضرًّا لأنت أحقّ أهل الشام فخرًا

لئن لم يؤتك الرحمن نصرًا فحسبك أن غضبت ومت حرًّا[٢]

بعد أن أخمد الفرنسيّون ثورة سهل حوران ١٩٢٠م تعرّضت قراهم للنّهب (تبنة، وشقرا، وجباب، وغباغب)؛ وجمع الفرنسيّون زعماء السّهل في قرية الشّيخ مسكين، وفرضوا عليهم غرامات بقيمة مائة ألف ليرة عثمانيّة ذهبيّة، واعتقلوا عددًا من هؤلاء الزّعماء، وكان على رأسهم الأمير إسماعيل الحريري، وعند الجمع جمع الضّبّاط الفرنسيّون ١٥٠ ألف ليرة ذهبيّة، وقد أجبر أهل حوران على دفع دية قدرها ٣٦ ألف ليرة ذهبية لأهل وزراء الحكومة العميلة (اليوسف والدروبي) الّذين قتلوهم في خربة غزالة. وقد فرض على كلّ فلاح في حوران بصرف النّظر عن اشتراكه في الانتفاضة من عدمه، دفع مبلغ قدره ١٠ ليرات ذهبيّة، ولعدم توفّر المبلغ كان على جميع الفلاحين تقريبًا مضطرين للّجوء إلى المرابين في دمشق، ما فاقم الوضع الاقتصادي سوءًا، كما أنّ قوّات الانتداب الفرنسيّ دمّرت العديد من القرى، واستولت في أخرى على المواشي[٣]. ورغم كلّ محاولات غورو لم يتطوّع أيّ شاب من حوران في «القوّات الخاصّة للشّرق» الّذي سعت له، وأسّسته فرنسا في سوريّة[٤].

---

١. الحرب الوطنيّة التحريريّة في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، م.س، ص١٤٠.

٢. الأعاصير، م.س، ص٦٣.

٣. الحرب الوطنيّة التحريريّة في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، م.س، ص١٠٠.

٤. زين العابدين، بشير، الجيش والسياسة في سوريّة (١٩١٨-٢٠٠٠م)، ص٧١-١٠٠.

٤. ثورة دير الزور وأثرها في ضمائر الأدباء والشّعراء السّوريّين

كان الإنكليز قد ضمّوا بادئ الأمر لواء دير الزّور المستقلّ في العهد العثمانيّ إلى العراق، ولم يجلوا عنه إبان جلائهم عن مدن سوريّة الدّاخليّة قبيل إعلان المؤتمر السّوريّ استقلال سوريّة، فاندلعت فيه ثورة وطنيّة بقيادة الأمير **رمضان شلاش** من شيوخ عشائر الفرات، تمكّن شلاش من طرد الإنكليز، وأعلن ضمّه إلى المملكة السّوريّة، ثمّ كان هذا اللّواء منطلقًا لثورة العراق سنة ١٩٢٠م، الّتي استمرّت ستّة شهور، وكبدت الإنكليز خسائر فادحة[١]. لقد كان الشّاعر **محمد الفراتي** من أبرز الشّعراء الّذين عاصروا هذه المرحلة، إذ كان قد قصد مصر للدّراسة فيها، وناضل فيها ضدّ الإنكليز، ولما عاد إلى بلده **دير الزّور** بعدما أنهى دراسته، وجد وطنه في دوّامة كبيرة تتجاذبه فيها قوى الغرب، وأطماعه، ولا يقدر الملك فيصل أن يصنع معهم حلاًّ[٢]. لم يكن الفراتيّ منعزلاً عن واقع بلاده السّياسيّ، بل عكس ذاك كان يتفاعل مع أحداثه، وتطوّرات أموره، فرغم أنّ عهد فيصل في سوريّة عُدّ ذهبيًّا، فقد تكشّفت بعض الأخطاء في سياسته، ولما كان كثيراً من أدباء، ومثقّفي، وشعراء العالم العربيّ ينأون بأنفسهم عن نقده، فإنّ الشّاعر محمد الفراتي حذّره بلهجة المنذر حين أشيع عنه أنّه ينوي تسليم لواء دير الزّور للإنكليز، وخاطبه في قصيدة أخرى بجرأة، وصراحة عرف بها سكّان تلك المدينة، وما حولها من البادية[٣]، إذ قال:

تكلّفنا ما لا يطاق احتماله فليس لنا عفوًا على حمله صبر
إذا أنت لم تنصف بعدلك بيننا تطاير فيما بين أحقادنا الشر[٤].

فالفراتي في هذه الأبيات يرفض أن يهادن رجلاً متربّعًا على عرش سوريّة، يريد أن يتنازل عن جزء من ترابها الغالي. وبعد أن سقط مُلك فيصل، وخضعت البلاد للاحتلال

١. الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة، م.س، ص١٠٨.
٢. الأرناؤوط، عبد اللطيف، محمّد الفراتي شاعر تحت صقيع النسيان (١٨٨٠-١٩٧٤م)، ص١٦٤-١٧٠.
٣. الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، م.س، ص٣١٢-٣١٣.
٤. محمّد الفراتي، الديوان.

الفرنسيّ؛ شعر الفراتيّ باختناق كبير في بلدته، فتبنّى مقاومة المستعمر، والدّعوة إلى الإصلاح، وقد لاقت دعوته قبولاً من القبائل العربيّة المنتشرة في البادية، وتحوّل النّقد إلى ثورة، فعمد المستعمر إلى إقالته من التّدريس في سنة ١٩٢٤م، وحاول اعتقاله لكنّه تمكّن من الهرب إلى العراق، ومنها سافر إلى البحرين. وكان الفراتيّ من منفاه يهاجم الفرنسيّين بأشعاره، ويسخر من مدنيّتهم المزيّفة، وقد كتب مندّدًا بهم بعد قصفهم لدمشق سنة ١٩٢٥م[١]:

هتكت حرائرها نفت أحرارها لم تبق شبّانًا هناك وشيبًا
هذا تمدّنك الحديث فهاته من قلب باريس لنا مجلوبًا[٢].

كان الفراتي يتابع أخبار الثّورة السّوريّة، ويدعمها بشعره الموزون التّقليديّ، ولما عاد الفراتيّ من رحلته الأخيرة في البحرين، وحطَّ الرّحال في مدينته دير الزّور سنة ١٩٣٠م، ولم يرَ أمامه سوى التّعليم، لكنَّ القائمين عليه آنذاك لم ينصفوه، وفي هذا يقول: «بقيت معذبًا... مرَّة معلمًا ابتدائيًّا، ومرّة خارج الوظيفة، ومرّة معلّمًا في مدرسة البنات»، وبقيت حال الفراتي هكذا إلى أن أنشئت مكتبة وطنيّة بدير الزّور، فأصبح قيّمًا عليها إضافة إلى تدريسه بدار المعلمات... ورغم ذلك فإنّ راتبه الزّهيد منها لم يدفعْ عنه شطفَ العيش ... وظلَّ ينفثُ آهاته الحزينة في كلِّ المناسبات الوطنيّة، والاجتماعيّة. استمرّ الفراتيّ في عمله أمينًا لمكتبة دير الزّور العامة منصرفًا إلى الكتابة، والتّأليف إلى أن كان جلاء المستعمر، والاستقلال الوطنيّ[٣].

٥. ثورة الجولان وأثرها في ضمائر الأدباء والشّعراء السّوريين

لقد ثارت **الجولان** في وجه المستعمر الفرنسيّ، وخاض أحمد مريود معارك قاسية للتّصدّي للقوّات الفرنسيّة، كان من أهمّ معارك هذه الثّورة معركة مرجعيون عيون، وإبل

١. محمّد الفراتي شاعر تحت صقيع النسيان (١٨٨٠-١٩٧٤م)، م.س، ص١٦٦.
٢. محمّد الفراتي، الديوان، ص١٤٦.
٣. شبلي، عبيدة، ملامح الاغتراب في شعر محمّد الفراتي، ص٤٥٢-٤٥٣.

السّقي، حيث أنزل الثّوّار بالفرنسيّين خسائر فادحة، أمّا معارك منطقة الحولة فكان أهمّها معركة قرية الحماري عندما هاجم الفرنسيّون هذه القرية، وتصدّى لهم الثوّار بقيادة الأمير محمّد الفاعور شيخ قبيلة الفضل، الّذي كان قد طرد عملاء الفرنسيّين وجباتهم[١]. ويوم كان الجنرال غورو عائدًا إلى دمشق، ومعه حقّي العظم (حاكم دمشق) بتاريخ (٢٣ حزيران ١٩٢١م)، بعد زيارة غداء في قرية «واسط» عند الأمير محمّد الفاعور، تصدّى لهما بعض الوطنيّين عند بلدة «خان أرنبة» قرب القنيطرة، وكان عددهم خمسة رجال بقيادة الأمير أحمد مريود، متنكّرين بزيّ الدّرك السّوريّ، أطلقوا عليه الرّصاص، فأصيب غورو في يده الخشبيّة، ودخلت رصاصة في عنق حقّي فجرحته[٢]، وقتل مرافق عسكريّ كان معهم، وقد أشار البيان الرّسميّ الذّيع في البرلمان الفرنسيّ في (٢٠ تشرين الأوّل ١٩٢١م)، ونشر في الجريدة الرّسميّة «جاء الإرهابيّون من شرق الأردن، وعادوا إليها في اليوم نفسه»، وقد أشيع في عمّان أن الجنرال قُتل، حيث منفى الشّاعر الدّمشقي خير الدّين زركلي، الّذي أنشد فقال:

يوم «الغورو» في قنيطرة كان العقاب به لما اجترما
نهضت بأبناء الحمى هِممٌ فتدرعوا الإقدام والهمما
ما بال «حقي» غير معتبر بمصير صاحبه الذي ظَلما
سيرون أيامًا محجّلة بيضًا لنا بخلوا بها الظُّلما
إنّ النفوس إذا غَلى دمها ألمًا شفت بزنادها الألما[٣]

نكّل الفرنسيّون بجميع القرى الّتي مرّ بها الثّوّار، إذ دمّروا البيوت، والمساكن، وفرضوا الغرامات الباهظة على الأهالي، وأحرقوا، ونهبوا، وملأوا السّجون بالأبرياء، حتّى

١. محمّد، نجاح، وآخرون، تاريخ العربي الحديث والمعاصر، ص١٨٤.
٢. يروى أن حقّي العظم تمدّد فوق غورو في جوف السّيارة حتّى يحميه من إطلاق الرّصاص، حرصًا منه على وقاية سيّده، ما ترك مكانة كبيرة لحقّي عند الفرنسيّين استمرّت حتّى نهاية الانتداب، انظر: سوريّة والانتداب الفرنسي، م.س، ص٥٨.
٣. خير الدين الزركلي شاعر الوطن، م.س، ص٥١.

الأطفال، والنّساء ساموهم سوء العذاب[١]. ولم يمض زمن طويل حتّى تواجه أحمد مريود وجها لوجه مع الفرنسيّين، ولم يكن معه إلّا نفر قليل، ورغم عدم تكافؤ القوّتين استمرّوا في مقارعة المستعمرين حتّى سقطوا كلّهم في ساح الوغى، والعجيب أنّ الفرنسيّين زهوا بنصرهم على مريود حدًّا جعلهم يعرضون جثته في دمشق ليرهبوا البلاد، والعباد[٢]، وفي ذلك يقول الشّاعر خير الدين الزركلي:

مصرع الأكرمين في مجدل شمس وجباتة منار الرجالِ
مصرع الأكرمين في أكم الشام نذير العداوة بالآجالِ
أقبلوا يحملون أحمد وضاح المحيا مضرج السربالِ
شهد الله أنهم حملوا موئل مستصرخ وليث صالِ[٣].

ثورة الشّمال السّوري وأثرها في ضمائر الأدباء والشّعراء السّوريّين

لقد عمّت حرب شعبيّة شاملة منطقة إدلب، وجسر الشّغور، ومعرّة النّعمان ولا سيّما جبل الأكراد، وجبل الزّاوية، حيث مقرّ الزّعيم إبراهيم هنانو، ونجح الثّوّار في الاستيلاء على عدد من القرى، والمدن، كان وضع الفرنسيّين حرجًا، وكادوا أن يخسروا البلاد، فبادروا إلى عقد اتّفاقيّة مع مصطفى كمال أتتورك في (٩ آذار ١٩٢١م)، تخلّوا له بموجبه عن كيليكيا (الّتي كانت تنوي فرنسا إقامة دولة للأرمن فيها)، ومنح سنجق الإسكندون الحكم الذّاتي، مقابل اعتراف الأتراك باحتلال فرنسا لسوريّة، وإيقاف الدّعم عن ثورة إبراهيم هنانو، توقّفت العمليّات العسكريّة بين الفرنسيّين، والأتراك، عندها تفرّغ الفرنسيّون لثوّار الشّمال السّوريّ، ووجّهوا قوّة مؤلّفة من ٣٠ ألف جندي، وقد ساند الطّيران قوّات المشاة. ويعترف أحد الضّبّاط الفرنسيّين أنّهم خلال المرحلة الممتدّة بين ١٤ و٢٥ آذار تلقّوا خسائر فادحة في صفوف الضّبّاط، والجنود. وبحلول شهر تمّوز سنة

١. الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة، م.س، ص١٤١.
٢. الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، م.س، ص٣٩٦.
٣. ديوان الزركلي، ص٨٥.

١٩٢١م تمكّن الفرنسيّون من القضاء على ثورة الشّمال، وفرّ إبراهيم هنانو إلى شرقيّ الأردن، وفي طريقه إلى القدس اعتقله الإنكليز وسلّموه للفرنسيّين، حاكمه الفرنسيّون، وأطلقوا صراحه، لينخرط بعدها في النّضال السّياسيّ[١]. لقد أثّر نضاله على جسده فقد أصيب بمرض السّلّ، وتوفي متأثّرًا به سنة ١٩٣٦م، بينما كان ابنه طارق مشاركًا في إحدى مظاهرات مدينة حلب ضدّ فرنسا، فضربه أحد أذنابها على رأسه، ما تسبّب له بارتجاج في الدّماغ. ولعلّ أعظم الشّعراء الّذين مجدوا نضال إبراهيم هنانو؛ هو عمر أبو ريشة، الّذي ألقى قصيدة «قيود» في الذّكرى السّنويّة الأولى لرحيل هنانو، وصفه فيها بالمستبسل الجبار:

ما أقربَ الماضي الذبيح يغيبفي طيّاته المستبسل الجبارُ
نوح المآذن ما يزال بمسمع يتدوي به الآصال والأسحارُ
فكأنما بالأمس ضلّت في الدجى سفنٌ، ومال على الرمال منارُ
يا مـنَّـةَ الزمان البخيل ومنتهى حلم العُلى، إن الحياة إسارُ
مرت لياليك العِذابُ وأنتفي الأجفان طيف العزة الخطّار
ماذا وراء غياهبٍ لـجّيةٍ قصَّتْ بهن جناحي الأسرارُ
روحٌ على شفة الخلود وهيكلٌ خاوٍ على قدم النا ينهارُ
ذكراك عرسُ المجد لم يُسكرْ له دفٌّ، ولم يحطم له مزمارُ
هذي الديارُ عشقتها ولطالما هزت حنين العاشقين ديارُ
تلك القوافلُ من شبولة يعربٍ ما زال منها فيلقٌ جرّارُ[٢].

٦. الثّورة السّوريّة الكبرى وأثرها في ضمائر الأدباء والشّعراء السّوريّين

عيّن الجنرال ويغان مفوّضًا ساميًا بدلاً من الجنرال غورو في (٩ آيار ١٩٢٣م) فعمل

١. الحرب الوطنيّة التحريريّة في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، م.س، ص١٤١.
٢. أبو ريشة، عمر، الديوان، ص٥٥٤-٥٥٦.

على إلغاء الاتّحاد السّوريذ، وأصدر القرار رقم ٢٩٨٠ تاريخ ٥ كانون الأوّل ١٩٢٤م الّذي نصّ على أن تتّحد دولتا حلب، ودمشق اعتبارًا من الأوّل من كانون الثّاني ١٩٢٥م، وتؤلّفان دولة واحدة (الدّولة السّوريّة)، وسمّي الداماد أحمد نامي رئيسًا لها خلفًا لصبحي بركات الخالدي. لم يرض الشّعب العربيّ في سوريّة بالتّجزئة، ولم يستكن للذّلّ، ولم يخضع للاستعمار لحظة واحدة، فتتابعت الثّورات، وتوالت الانتفاضات، وانفجرت الثّورة السّوريّة على كامل امتداد رقعة الجغرافيّة السّوريّة في شهر تموز سنة ١٩٢٥م على فرنسا رافضة احتلال جيشها[١].

عقد اجتماع سرّيّ في منزل آل الحلبوني حضره السّياسيّ، والأديب الدّكتور عبد الرّحمن الشهبندر رئيس حزب الشّعب، وأقسم المجتمعون أن يقوموا بثورة لا يخمد سعيرها حتّى ينالوا مطالبهم، وكان فارس الخوري وقتها يحضر المؤتمر الماسوني العام في زحلة عندما بدأت الثّورة، وقد كانت له الكلمة الحاسمة في مناقشات هذا المؤتمر، اعتقد الفرنسيّون أنّ فارس الخوري خلف هذه الثّورة، فاعتقلوه لما عاد إلى دمشق في (٢٦ آب ١٩٢٥م) لأجل إخمادها، ثمّ تمّ نفيه إلى جزيرة أرواد ٧٦ يومًا، مع ثلّة من رجالات البلد، وقد تحدّث الخوري شعرًا عن فضل المنفى في توثيق العلاقة بين المناضلين السّوريّين في وجه الاستعمار الفرنسيّ:

كهوف أرواد مدّت بينا نسبايا حبّذا السجن بل يا حبّذا النسب[٢]

لقد خاض الثّوّار معارك قاسية مع الجنود الفرنسيّين، ومرتزقتهم، سجّل فيها الثّوّار انتصارات باهرة على القوّات الفرنسيّة، وكانت أشدّ هذه المعارك، وأحماها وطيسا تلك الّتي تواجه فيها الثّوّار مع الغاصبين في الغوطة؛ في النّشابية، وجسرين، وجوبر، والمليحة، وتجاوزت الثّورة منطقة الغوطة لتشمل المرج، والقلمون، ثمّ بقيّة المناطق، والمدن

١. الصحافة السوريّة ماضيها وحاضرها (١٨٧٧-١٩٧٠م)، م.س، ص٦٨.

٢. فارس الخوري حياته وعصره، م.س، ص٩٠.

السّوريّة[١]، كما اشتعلت الثّورة في حماه في ٤ تشرين الأوّل بزعامة فوزي القاوقجي. وكالعادة أبرى الشّعراء لتخليد هذه الملاحم البطوليّة، وكان منهم خير الدّين الزركلي الّذي افتخر بأبطال شعبه الّذين ثاروا على المغتصب غير مكترثين بما يلاقونه من ظلم، وعذاب، وسجن، ونفي، لا بل إنّهم يتسارعون لخندق الثّورة، ويلهبون أوارها في المناطق كلّها، رافضين الذّلّ، والخنوع، وانحناء الرّقاب، فيقول:

انظر إلى القوم لا حولٌ ولا عضد ثاروا على البغي ما هابوا ولا
أُباة ضيمٍ، مقاديم إذا استعرت لظى نضالٍ، مناجيد، مساريع
سيموا الأذاة، فلم يحنوا رقابهم ذُلًا، ولا استسلموا والأنف[٢]

ولما اندلعت الثّورة السّوريّة الكبرى سنة ١٩٢٥م، عاد الدّكتور خالد الخطيب إلى حماة من منفاه، ومن هناك شارك الثّوّار في ملاحمهم حماه، وحمص، والغوطة، وكان يقاتل مع الثّوّار، فمتى هدأ القتال يقضي وقته في معالجة الجرحى[٣]. وكان لمعارك الغوطة (١٩٢٥م) أثر عظيم في نفس الشّاعر محمد البزم، فعبّر عنها بشعر يفيض عاطفة صادقة، فخورًا بطولات المجاهد **حسن الخرّاط**، أحد أبرز أبطال الثّورة السّوريّة الكبرى في مواجهة الفرنسيّين[٤]، ذلك الرّجل الّذي لم يعرفه النّاس إلّا باستشهاده، فكتب فيه:

يا مؤثّر الموت في إنقاذ موطنه ركبت صعبًا فلا لاقيت خذلانًا
سيرت ذكرك في الآفاق تحمله جوانب الجو أفراحًا وأحزانًا
وليس عندك من مال ولا عدد إلّا العزائم قد مثّلن إيمانًا
وحارس الوطن المنكود طائره يحمي ويمنع أشياخًا وصبيانًا[٥].

١. تاريخ دمشق الحديث والمعاصر، م.س، ص٢٠٦.
٢. خير الدين الزركلي شاعر الوطن، م.س، ص٥١.
٣. من تاريخ الشعر في سوريّة، م.س، ص٤٣.
٤. محمّد البزم شاعر العروبة والشام، م.س، ص٢٥.
٥. البزم، محمّد، الديوان، ج١، ص١٧.

ثمّ يتوجّه شاعرنا بالخطاب إلى الفرنسيّين مذكّرهم بأنفة الشّام، وعزّتها، وعنفوانها أمام الطّامعين، وينصحهم بالجلاء عن البلد؛ فالشّام ليست كبلاد الصّين، وأهلها العرب من نسل عدنان لن يكونوا عبيد لأحد:

ويا بني «السين» نصحًا لا مراء بهو النصح يسمعه ذو الطيش أحيانًا
دعوا الشآم وخلوا القاطنين به ويمموا غير ذي الأوطان أوطانًا
أخلتم الشام أرض الصين حينعفت أحلامكم وبني الفيحاء سودانًا
ما جلّق وهي بنت المجد خاضعة لكم ولا الصيد من عدنان عبدانًا[1].

أمّا **الصحفيّون السوريّون** فقد كرّسوا أقلامهم لنقل أخبار تلك المعارك، وحثّوا الجنود السّوريّين المتطوّعين في «القوّات الخاصّة للشّرق» على الفرار منها، والالتحاق بالثّورة الوطنيّة ضدّ المستعمرين، ما أغضب سلطات الانتداب الفرنسيّ؛ فكان أن صدر القرار رقم ٢٦٣٠ في السّابع والعشرين من آيار سنة ١٩٢٥م «بشأن الجنايات، والجنح الّتي ترتكب بواسطة الصّحف»، وقد نصّ القرار «إنّ كلّ تحريض يدعو العساكر البرّيّة، والبحريّة في الجيوش الأجنبيّة إلى الفرار، أو العصيان سواء كان بواسطة الكتابات، أم المطبوعات المبيعة، أم الموزّعة، أم المعروضة للبيع، أم المعروضة في محال عامّة، أم في مدّة اجتماعات عامّة، أم بواسطة إذاعات، وإعلانات معروضة على أنظار الشّعب يعاقب فاعلوه بالحبس من ستّة أشهر إلى سنتين، وبجزاء نقديّ من ١٥ إلى ٢٥ ليرة سوريّة»[2].

جاء ساراي مفوّضًا ساميًّا في الثّاني من كانون الثّاني ١٩٢٥م، وكان رئيس الدّولة صبحي بركات الخالدي الّذي ضيّق على الصّحفيّين، وخنق أقلامهم عندما أصدر القرار رقم ٦٩ تاريخ (١٥ نيسان ١٩٢٥م)، الّذي نصّ على أنّ «لرئيس دولة سوريّة أن يأمر بناء على اقتراح وزير الدّاخليّة بتعطيل، أو عدم إدخال كلّ صحيفة، أو نشرة تنشر مقالات، أو أخبار من شأنها تهييج الرّأي العام، أو إهانة رئيس الدّولة، أو أعضاء الحكومة، أو

١. الديوان، م.س، ص٢٠.
٢. الصحافة السوريّة ماضيها وحاضرها (١٨٧٧-١٩٧٠م)، م.س، ص٦٨.

أعضاء المجلس التّمثيليّ، أو الموظّفين الملكيّين، أو العسكريّين بدوائر الدّولة كافّة...» وكما هو واضح من هذا القرار هو عزل الصّحافة عن جماهير الشّعب النّاقمة على أعمال الفرنسيّين، والحيلولة دون قيام المثقّفين بدورهم في هذه المرحلة العصيبة من تاريخ الوطن، الّتي انطلقت فيها شرارة الثّورة، ووصلت إلى كلّ بقاع سوريّة، وإذا استطاع هذا القرار فرض سطوته على الصّحافة، فإنّه عجز عن إطفاء نار الثّورة، حيث كانت معارك الغوطة مستمرّة، وعدد الثّوّار يزداد، ولما تقدّم الثّوّار صوب دمشق، ودخولها يوم (١٨ أكتوبر ١٩٢٥م)، وهدّدوا الجنرال ساراي نفسه في مقرّ إقامته، فما كان من المستعمر الفرنسيّ إلّا أن صبّ نار حقده على هذه المدينة، وسكّانها الآمنين، حيث فرّ ساري إلى بيروت، ومن هناك أمر بضرب دمشق بالمدافع في اليوم الثّاني، استمرّ قصف دمشق ٢٤ ساعة[١]، ولم يتوقّف القصف بتوجّه وفد من وجهاء الدّمشقيّين (سعيد الجزائري، تاج الدّين الحسيني، نسيب حمزة) قابل الجنرال ساراي، وتعهّد بدفع غرامة ماليّة قدرها مائة ليرة ذهبيّة، وتسليم المدينة ثلاثة آلاف بندقيّة، فنزحت عنها شخصيّات، وأسر لا تحصى من جملتها شكري القوتلي، وخالد الحكيم، ونبيه العظمة، وقد قام هؤلاء بفضح أعمال ساراي الوحشيّة في دمشق[٢].

لقد كان لقصف دمشق أثر عظيم في نفوس المفكّرين، والأدباء، والشّعراء، والخطباء العرب، وطلّاب الجامعة السّوريّة، فقد وقف الشّاعر خير الدّين الزركلي الشّاعر السّوريّ المنفي من وطنه، والمحكوم عليه بالإعدام من قبل محاكم الانتداب الفرنسيّ، يهجو ساراي في قصيدة عنوانها «ما بال ساراي» قال فيها:

أجهر برأيك لا يأخذك ترويع لا ينفع الصوت إلا وهو مسموع
شران لا تحمل الأقوام عبأهما سياسة الأخذ بالإرهاق، والجوع

١. الصحافة السوريّة ماضيها وحاضرها (١٨٧٧-١٩٧٠م)، م.س، ص٨٠.
٢. تاريخ دمشق الحديث والمعاصر، م.س، ص٢٠٦.

ما بال ساراي يغلي في حماقته كأنما مسّ جمرا فهو ملذوع[١].

ولما أقيم في مصر عدّة مهرجانات شعبيّة لمؤازرة نضال الشّعب السّوري ضدّ جلّاديه، وقف خير الدين الزركلي[٢]، فأنشد يقول:

الأهل أهلي والدّيار ديار ي وشعارُ وادي النَيْرَبين شعاري
ما كان من ألم بجلّق نازل واري الزناد، فزنده به واري
إن الدم المهراق في جنباتها لدمي وإن لشفارها لشفاري
والنار محدقة بجلّق بعد ما تركت حماة على شفير هارِ
تنساب في الأحياء مسرعة الخطى تأتي على الأثمار والأعمار
الطفل في يد أمه عرضُ الأذى ي ُرمى وما للشيخ من أوزار
أم القصور نواعمًا ربّاتها ما للقصور دوائر الآثار
ما ينقمون عليك إلا أنهم شهدوك غير مَقودةٍ لصغار
غضبت لسوريّة الشهيدة أمة في مصر تطفئ غلة الأمصار
لله والتاريخ والدم واللغة حق وللآمال والأوطار[٣].

وكان الشّاعر محمد البزم شاهد عيان على الجريمة، فكتب للفرنسيّين متوعّدًا إيّاهم:

أبناء (غيلة) لا كان انتدابكم فقد أسال دماء العرب غدرانا
لا ترهقوا العرب، فالعرب الكرام لهم إن أرهقوا وثبة الضرغام غضبانا[٤].

أمّا الشّاعر خليل مردم بيك فقد أعادة أحداث للثّورة السّوريّة، وقصف دمشق إلى ذاكرته ذكرى معركة ميسلون فكتب في قصيدة «يوم ميسلون»:

مصيبة ميسلون وإن أمضّت أخفُّ وقيعةً ممّا تلاها

---

١. الأعمال الشعريّة الكاملة، م.س، ص١١٦-١١٨.
٢. الوافي في الأدب العربي الحديث، م.س، ص٩٩.
٣. الأعمال الشعريّة الكاملة، م.س، ص٢١٠-٢١١.
٤. الديوان، م.س، ص٣٠.

فما من بقعةٍ بدمشق إلا ّ تمثِّل ميسلون وما دهاها
فسلْ عما تصبّب من دماء تخبرك الحقيقة غوطتاها[١]

جراء القصف تهدّم قسم من مباني دمشق التّاريخيّة، والآثار المعماريّة، بما فيها قصر القوتلي، ومسجد السّنانيّة، وغيرها[٢]، ودكّت المنازل على رؤوس أصحابها، ونشبت حرائق كبيرة فيها؛ وخاصّة في حيّ الميدان، وفي منطقة سيّدي عامود (حيّ الحريقة حاليًّا)؛ إذ دمّرت غالبيّة البيوت الموجودة في هذا الحيّ[٣]، وقد أحدث هذا القصف الهمجيّ لدمشق أزمة دوليّة، اضطرّت فرنسا على أثرها لسحب ساراي، وعيّنت بدلاً منه دي جونفيل في الثّاني من كانون الأوّل ١٩٢٥م، وهو أوّل مفوّض سامي مدني فرنسي لسوريّة[٤].

١. الديوان: مجمع اللغة العربيّة، م.س.

٢. الحرب الوطنيّة التحريريّة في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، م.س، ص٢٤١.

٣. الصيداوي، رياض، مدينة دمشق القديمة (دراسة في العلاقات المتبادلة بين النمط العمراني والنشاط الاقتصادي)، ص٣٦.

٤. فارس الخوري حياته وعصره، م.س، ص٩٠-٩١.

الخاتمة

أوّلًا: يمثّل الشّعر، والأدب، وما نشرته الصّحف اليوميّة **وثائق تاريخيّة** مهمّة، تعبّر بصدق عن مواقف النّخب الوطنيّة، ودورها في النّضال في سبيل الحرّيّة، والاستقلال، فقد استطاع المفكّرون، والشّعراء، والأدباء توثيق الكثير من أحداث النّضال الوطنيّ بكتابتهم، وقصائدهم الّتي كانت تعرّض حياتهم للخطر، كما أنّه خلّد أسماء أبطال كانت أسماؤهم سيدرّسها الزّمن لولا قصائد الشّعراء الّتي قيلت فيهم.

ثانيًا: استخدم المفكّرون، والشّعراء، والأدباء **الكلمة** سلاحًا لهم في مواجهة المستعمرين، لتكون الكلمة الوطنيّة الصّادقة خير سندٍ للرّصاصة الفاتكة، كما أنّ تلك الكلمات، والقصائد، والأشعار كانت زاد الثّورة المعنويّ الّذي يستمدّ منه أبطال الكفاح المسلّح طاقتهم المعنويّة.

ثالثًا: عمد المفكّرون، والشّعراء، والأدباء إلى **فضح** ممارسات المستعمرين البشعة، ودعواتهم البغيضة المندرجة في إطار سياستهم الخبيثة (فرّق تسد) الرّامية إلى تفتيت البلاد، وتفريق العباد، فضحوه على مستوى الوطن، وعلى الصّعيد الدّوليّ.

رابعًا: سعى المفكّرون، والشّعراء، والأدباء إلى **الحفاظ** على هوّيّة الأمّة العربيّة، والتّأكيد على أنّ سوريّة جزء لا يتجزّأ منها؛ من خلال الحفاظ على اللّغة العربيّة، وتراث الأمّة، وتاريخها المجيد، وتعزيز مكانته.

خامسًا: تحمّل المفكّرون، والشّعراء، والأدباء جميع صنوف **العذاب**، والهوان من سجن، واعتقال، ونفي، وتشريد، من دون أن يهنوا، أو يضعفوا.

سادسًا: أثرى النّضال الوطنيّ في سوريّة ضدّ الانتداب الفرنسيّ الرّوح الأدبيّة في سوريّة، والعالم العربيّ، والمهجر؛ ما انعكس على جميع الأجناس الأدبيّة.

لائحة المصادر والمراجع

١. أبو ريشة، عمر، الديوان، مج١، دار العودة، بيروت، ١٩٩٨م.

٢. أبو ماضي، إيليا، الديوان: تبر وتراب، دار العلم للملايين، بيروت.

٣. الأحمد، خالد طه، بدايات التعليم الحديث في دمشق، ضمن كتاب دمشق الشام عاصمة الثقافة العربيّة ٢٠٠٨م، هيئة الموسوعة العربيّة، دمشق، ٢٠٠٨م.

٤. أحمد، ناهد، المواقف السياسية للمهاجرين الشوام في البرازيل من قضايا الوطن فيما بين (١٩٠٤-١٩٢٥م)، مجلة كلية التربية الصادرة عن جامعة المنصورة، العدد ١١٧، يناير، ٢٠٢٢م.

٥. الأرناؤوط، عبد اللطيف، محمد الفراتي شاعر تحت صقيع النسيان (١٨٨٠-١٩٧٤م)، مجلة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربيّة السوريّة، العدد ٦٢٣، السنة ٥٤، آب، ٢٠١٥م.

٦. البزم، محمد، الديوان، ضبطه وشرحه سليم الزركلي وعدنان مردم بيك، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيّة، المطبعة الهاشميّة، دمشق، ١٩٦١م

٧. البطل، أحمد خالد، الصالونات الأدبيّة الثقافيّة في دمشق (النشأة، الرواد، صعوبات وتحديات) بين ١٩٢٠- ٢٠٠٠م، دمشق، ٢٠٢١م.

٨. ترامونتيني، ليزي؛ دونوهيو، جون، أعلام الأدب العربي المعاصر، سير وسير ذاتية، نصوص ودراسات بيروتية ١٢٣، سلسلة يصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، ٢٠١٣م.

٩. تكريتي، عدنان، جامعة دمشق وتعريب العلوم، ضمن كتاب دمشق الشام عاصمة الثقافة العربيّة ٢٠٠٨م، هيئة الموسوعة العربيّة، دمشق، ٢٠٠٨م.

١٠. جبري، شفيق، ديوان نوح العندليب، منشورات مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ١٩٨١م.

١١. الجندي، أحمد، شعراء سوريّة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٥م.
٢١. حداد، جورج؛ الخباز، حنا، فارس الخوري حياته وعصره، ط٢، الهيئة العامّة السوريّة للكتاب، دمشق، ٢٠١٤م.
٣١. الحريري، نبيل زين العابدين، حوران في التاريخ، دار الأمل، القاهرة، ٢٠٢٣م.
١٤. الحكيم، يوسف، سوريّة والانتداب الفرنسي، دار النهار، بيروت، ١٩٨٣م.
١٥. الخطيب، مصطفى، تاريخ دمشق الحديث والمعاصر، ضمن كتاب دمشق الشام عاصمة الثقافة العربيّة ٢٠٠٨م، هيئة الموسوعة العربيّة، دمشق، ٢٠٠٨م.
١٦. الخوري، رشيد سليم، الأعاصير، مطبعة مجلة الشرق، د.ت.
١٧. الداية، محمد رضوان، من تاريخ الشعر في سوريّة، مجلّة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربيّة السوريّة، العدد ٥٧٣، السنة ٥٠، حزيران، ٢٠١١م.
٨١. دقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ط٣، منشورات حلب، ١٩٧٧م.
١٩. رزقي، اناس نور، الوطنيّة في شعر «حكاية سمار» لعمر أبو ريشة، دارسة تحليلية وصفية، بحث مقدم في قسم اللغة العربيّة وآدابها، جامعة الرانيري الإسلامية الحكومية، دار السلام، ٢٠٢٠م.
٠٢. الرفاعي، شمس الدين، تاريخ الصحافة السوريّة واللبنانية من العهد العثماني حتى الاستقلال (١٨٠٠-١٩٤٧م)، الانتداب الفرنسي والاستقلال، منشورات اسمار، باريس، ١٩٦٧م.
٢١. الركابي، جودة؛ عبد الكريم، إسماعيل؛ الخطيب، حسام، الوافي في الأدب العربي الحديث، دمشق، ١٩٦٤م.
٢٢. الريس، منير، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، دار الطليعة بيروت، ١٩٦٩م.

٢٣. الريس، نجيب نضال، مطبعة القبس، دمشق، ١٩٣٤م.
٢٤. زرزور، فارس، معارك الحرية في سوريّة، دار الشرق، دمشق، ١٩٦٢م.
٢٥. الزركلي، خير الدين، الأعمال الشعرية الكاملة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.
٢٦. زين العابدين، بشير، الجيش والسياسة في سوريّة (١٩١٨-٢٠٠٠م)، دار الجابية، لندن، ٢٠٠٨م.
٧٢. شبلي، عبيدة، ملامح الاغتراب في شعر محمد الفراتي، دراسة أدبيّة، جامعة القفقاز، تركيا، ٢٠٢١م.
٢٨. الصغير، إبراهيم، محمد البزم شاعر العروبة والشام، مجلّة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربيّة السوريّة، العدد ٦١٣، السنة ٥٣، تشرين الأول، ٢٠١٤م.
٢٩. الصيداوي، رياض، مدينة دمشق القديمة (دراسة في العلاقات المتبادلة بين النمط العمراني والنشاط الاقتصادي)، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في الجغرافيا، جامعة دمشق، ٢٠٠٥م.
٣٠. عثمان، هاشم، الصحافة السوريّة ماضيها وحاضرها (١٨٧٧-١٩٧٠م)، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٧م.
١٣. العطري، عبد الغني، عبقريات شامية، مطبعة الهندي، دمشق، ١٩٨٦م.
٢٣. عكرمة، مصطفى، عمر أبو ريشة شاعر أمّة إطلالة وقطوف، وقصائد لم تنشر سابقًا، دراسة انطباعيّة الكويت، ٢٠١٤م.
٣٣. العمري، صبحي، أوراق الثورة العربيّة، الريس للنشر، لندن، ١٩٩١م.
٤٣. فرطاس، حسيبة، العدوان الفرنسي على سوريّة وآثاره ٢٩ ماي ١٩٤٥م، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في تاريخ الوطن العربي المعاصر، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، ٢٠١٩م.

٣٥. قنبس، أكرم جميل، خير الدين الزركلي شاعر الوطن، الهيئة العامة السوريّة للكتاب، دمشق، ٢٠١١م.
٣٦. القنطار، سيف الدين، الأدب العربي السوري بعد الاستقلال، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٧م.
٧٣. لوتسكي، فلاديمير، الحرب الوطنيّة التحريرية في سوريّة (١٩٢٥-١٩٢٧م)، صفحة مشرقة من النضال العربي ضد الإمبريالية الفرنسيّة، ترجمة: محمد دياب، سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٧م.
٣٨. ليامنة، سايح، الآثار السياسية للانتداب الفرنسي والبريطاني على بلاد الشام (١٩٢٤-١٩٣٩م)، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في تاريخ الوطن العربي المعاصر، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، ٢٠١٩م.
٣٩. محاسيس، نجاة، معجم المعارك التاريخيّة، دار زهران، عمان، ٢٠١١م.
٤٠. محمد، نجاح، وآخرون، تاريخ العربي الحديث والمعاصر، المؤسسة العامة للمطبوعات والكتب المدرسية، دمشق، ٢٠٠٥م.
١٤. مردم، خليل، الديوان: مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ١٩٦٠م.
٤٢. المشاقبة، ياسر علي، عبد الرحمن الشهبندر (دراسة في تاريخ سوريّة السياسي ١٩١٨-١٩٤٠م) رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة اليرموك، أربد، ٢٠٠٦م.